

معركة احد

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش



معركة احد

إجماع قريش على الثأر لهزيمتها في بدر

لَمْ تَنْسَ قُرَيْشٌ هزيمتَها المُخزيةَ في بَدْرٍ، وظلَّتْ نساؤها يَنُحْنَ على القتلى ويُحرِّضْنَ على الثأرِ لهم من محمدٍ وأصحابِهِ، وكان أبو سفيانَ بنُ حربٍ من أكبرِ المُصابين في المعركة، هو وزوجُهُ هِنْدُ بنتُ عُتبةَ، فقد قُتِلَ له ولدٌ وأُسِرَ آخرُ، وفَقَدَتْ هِنْدٌ أباها وأخاها وعمَّها، فظلَّ الحزنُ يُخيِّمُ على بيتِ أبي سفيانَ، حزنٌ صامتٌ يفري الأكبادَ، ويَكْتُمُ النُّواحَ والدموعَ، مخافةَ أَنْ يَشْمَتَ المسلمون بهِنْدٍ وزوجِهَا، وماذا ينفعُ البكاءُ، إذا لمْ يَتِمَّ لِقُرَيْشٍ أَنْ تأخذَ بثأرِهَا، وتنتقمَ لمصارعِ قتلاها، وتَفْتِكَ بالمسلمين

فتكةً تَسْتردُّ بها عنفوانَها وهيبتَها في أعينِ القبائلِ العربيةِ كُلِّها، وعلى أبي سفيانَ أَنْ يَسْتثيرَ أحقادَ المكيينَ مِنَ المُصابينَ في بَدْرٍ، في انتظارِ يَوْم الثأرِ، ليبذلوا في تَجْهيزِ حَمْلةِ الانتقامِ بِسَخاءٍ كبيرٍ، و يُعبّئوا قواهم لِلزَّحْفِ على يَثْرِبَ في يومٍ قريبٍ!

وفي يَثْرِبَ التي شهِدَتْ عَوْدَةَ الجيشِ الإسلاميِّ المظفَرِ من بدر، ومعه الأسلابُ والغنائمُ والأسرى مَقْرُونينَ في الحبالِ، شَعَرَ اليهودُ والمشركون والمنافقون بازديادِ توةِ محمدٍ وأصحابِهِ، وَاشْتِدَادِ سلطانِهِم ونفوذِهِم، وظهر تَذَمُّرُ اليهودِ مِنِ اعتدادِ المسلمينَ بِالْنَّصْرِ الحاسِمِ الذي أصابوه في معركة بَدْرٍ، وزادَتْ مخاوفُهُمْ من مستقبلِ هذه الدعوةِ الجديدةِ، التي ينمو سُلْطَانُهَا يوماً بعد يومٍ، فراحوا يَدُسُّوْنَ و يتآمرون على المسلمين، وراح شُعَرَاؤُهُم يُحَرِّضُون قُرَيْشاً على

الانتقامِ والثأرِ لِقَتْلاها في بَدْرٍ، وقد بَلَغَ الأمرُ باليهُودِ إلى أَنْ يتآمروا على اغتيالِ النبيِّ (ص) ليتخلّصوا منه ومن دعوتِهِ وسلطانِهِ ونفوذِهِ، ولمْ يكنْ محمدٌ لِتَخْفَى عليه خَافِيَةٌ مِنْ دَسِّهِم وتآمرِهِم ونقضِهِم لِلْعُهودِ المُبرمةِ معه، فرأى عليه السَّلامُ، بِثَاقِبِ نظرتِهِ وَعَمِيقِ فهمِهِ للشخصيةِ اليهوديةِ الغادرةِ، أَنْ يعمدَ إلى ضربِ الأفعى بِعُنْفٍ لِلقَضاءِ على سُمومِهَا وبغيها، حمايةً لِلدَّعوةِ الجديدةِ ومستقبلِهَا مِنَ الخطرِ اليهوديِّ المُتربِّصِ بها، وَلَئِنْ كان المسلمون قبلَ بَدْرٍ يُدَارُون الأفعى و يَصْبِرُوْنَ على ما تَنْفُثُهُ من أحقادِها وسمومها، إنّهم اليومَ لأقوِياء ُقادرون على التَّصَدِّي لكلِّ مَنْ تُسَوِّلُ لهم أنفسُهم أَنْ يُجاهِرُوا النبيَّ بعدائِهِم، أو يكيدوا له ولأصحابِهِ في الخَفَاءِ..

وهكذا بدأ المسلمون حملةَ تَصْفِيَةٍ لمن شُهروا

بِالمُجاهرةِ في عداوتِهم وخصامهم لِلدَّعوةِ الإسلاميّةِ وصاحِبِهَا، ويُعدُّ اغتيالُ الشاعرِ اليهوديِّ كعبِ بنِ الأشْرَفِ، في جوفِ الليلِ، نموذجاً من نماذج هذه الحملة، التي بَثَّتِ الذعرَ في قلوبِ اليهودِ والمنافقين، وقد كان كعبُ بنُ الأشرفِ هذا يَنْهَضُ بِدَوْرٍ كبيرٍ في الدعاية المناوِئَةِ للمسلمين، والمحرِّضَةِ لأعْدائهم عليهم: فكان لا يألو جهداً في هجاءِ المسلمين وَالْقَدْحِ في دينهم، وتأليبِ قُرَيْشٍ عليهم، والتآمرِ لاغْتِيالِ النبيِّ، والكيدِ لِلقضاءِ على الإسلامِ، والافتراءِ على نساءِ المسلمين، بِالتَّشْبِيْبِ بِهِنَّ، حتى آذاهم، وهو واحدٌ مِنْ بني النَضِيْرِ الذين عاهدوا النبي على مخالفة[3] المسلمين، ولكنّه في مُجَاهرتِهِ في مُناوأةِ المسلمين، ناقِضٌ لِعَهْدِ قومِهِ أيضاً، غادرٌ بالمواثيق التي أبرموها مع النبي، فكان مَقْتَلُهُ إنْذاراً لِليهودِ، وضَرْبةً قاصمةً لمعنوياتهم في المدينةِ،

ولكنَّهُم لمْ يَكُفُّوا أذاهم عن المسلمين، وعندما سألهم النبيُّ أَنْ يَلْتَزِمُوا بالعهودِ أو يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بِقُرَيْشٍ في بَدْرٍ، استهانوا بوعيده وأجابوه:

ـ «لا يَغُرَّنَّك يا محمدُ أَنَّكَ لقيتَ قوماً لا علمَ لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فُرْصَةً مُواتيةً لك، فلو حاربناكَ نحنُ لَعَرَفْتَ كيفَ تكونُ الحربُ»، وأيقنتَ أنَّا نَحْنُ أربابُ القِتالِ والصدامِ!

وكان لا بُدَّ للمسلمين أَنْ يواجِهُوا هذا التحدِّيَ الجديدَ بعمليةٍ حاسمةٍ. فقاموا بِحِصَارِ بني قَيْنُقَاعٍ بعد قتلِهِم لِواحدٍ من المسلمين في سوقهم، وامتدّ حِصارُ المسلمين لهم في دورهم خَمْسَةَ عَشَرَ يوماً، حتّى لمْ يبقَ لهم إلا النزولُ على حكمِ محمدٍ والتسليمِ بقضائهِ، فَسَلَّمُوْا، وَتَمَّ إجلاؤُهُم عن المدينةِ، بعد أن تركوا فيها سِلاحَهُم، وهاجروا إلى صَوْبِ الشِّمالِ،

ونزلوا على حُدُوْدِ الشَّامِ، وقد ضعفتْ شوكةُ اليهودِ بعد جلاءِ بني قَيْنُقَاعٍ عن المدينة، وتَمَّتِ السيادةُ لِلنبيِّ وأصحابِهِ في العاصمةِ الإسلامِيَّةِ الأولى.

أما في مكّةَ فكان أبو سفيانَ يُوالي الجهودَ في الاعدادِ لحملةِ الإنتقامِ، ولكنَّهُ رأى أنْ يُبادِرَ إلى القيامِ بِغَزْوَةٍ على ضواحي المدينةِ، غزوةٍ خاطِفَةٍ، بمائتين مِنْ رِجال قُرَيْشٍ، والغايةُ منها أَنْ يُظْهِرَ للقبائلِ العربيةِ الأخرى أَنَّ قُرَيشاً ما تزال لها قوتُها وعصبيَّتُها وقدرتُها على الغزوِ والقِتالِ، فلا تُقْدِمُ تلك القبائلُ على مُهادَنَةِ محمدٍ وأصحابِهِ، ولا تَمْتَنِعُ عن تلبيةِ استِنْفَارِ قُرَيْشٍ لها، لِعَوْنِها على حربِ المسلمين؛ ولمْ يستطعْ أبو سفيانَ أنْ يَقْتَرِبَ من ضواحي المدينةِ إلا ليلاً، فأغار متخفّياً على بعضِ البيوتِ بناحيةٍ يُقالُ لها العُرِيض، ثم ارتدَّ هارباً،

خائفاً أن يُدركه النبيُّ وأصحابُه، لمّا عَلِمَ بخروجِهم إليه، ومن شِدّةِ خوفِهِ هو وجماعتُهُ، راحوا يُلقون ما يحملون من زادهم مِنَ السَّوِيْقِ (دقيق الحنطة والشعير)، تخفّفاً مِنْ حِمْلِهِم، للعجلةِ في الفِرارِ، وقد جَمَعَ المسلمون وهو يطارِدُوْنَهم أكياسَ السَّوِيْقِ، قبلَ أَنْ يعودوا إلى المدينةِ من (غزوةِ السويقِ)!

وتابع المسلمون مُحاصَرَةَ القوافلِ التجاريّةِ لِقُرَيْشٍ، لإدراكهم أنّ حِرْمانَ العدوِّ من مواردِهِ الاقتصادِيّةِ هو نصفُ الطريقِ إلى النَّصْرِ، ومنذ أصبح الطريقُ الساحليُّ من مكّةَ إلى الشّامِ مُهدّداً، وتوقفَتْ قوافلُ قُرَيْشٍ عن سلوكِهِ، شَعَرَتِ القبائلُ المُقِيمةُ على جوانبِ الطريقِ بِخَسارتِها وحرمانِها مِنَ الفوائدِ الاقتصاديّةِ التي كانت تجارةُ مكّةَ تُتيحها لها،

بِقوافِلِهَا الغادِيَةِ والرائِحَةِ، وَسَرَتْ في هذه القبائلِ روحٌ من الغَضَبِ والتذمّرِ لذلك، وفكّر بعضُها بالإغارةِ على المدينةِ والكيدِ للمسلمين، ولكنَّ أصداءَ انتصارِ محمدٍ في بَدْرٍ كانتْ تعمُ الجزيرةَ العربيَّةَ، وتُشِيْعُ الرعبَ في قلوبِ تلك القبائلِ، من الإقْدامِ على مخاطرةٍ وخيمةِ العواقبِ!

وعزمتْ قُرَيْشٌ على اختيارِ طريقٍ أخرى لِقوافلها التجاريّةِ إلى الشام: طريقِ العراقِ التي لا يطؤها أحدٌ من أصحابِ محمدٍ، وخَرَجَتِ القافلةُ الأولى بقيادةِ صفوانَ بنِ أمَيَّةَ، وفيها مِنَ الفِضَّةِ والبضائع ما قيمتُهُ مائةُ ألفِ دِرْهَمٍ، وبَلَغَ الخبرُ النبيَّ فبعَثَ زيدَ ابنَ حارثةَ في مائةِ راكبٍ، اعترضوا لِلقافلةِ في الطريقِ، فَفَرَّ عنها رجالُها، وغَنِمَ المسلمون البعيرَ وما تحمله، وأحكموا بذلك نِطَاقَ الحِصارِ الاقتصادِيِّ

على قُرَيْشٍ من جِهَةِ الشِّمالِ إطلاقاً.

كان على قُرَيْشٍ أَنْ تُعِدَّ نفسَها لمعركةِ الثأرِ، وعلى أشرافِ مكَّةَ أَنْ يبذلوا بِسَخَاءٍ لتجهيزِ محاربيهم، وتعبئةِ جيشٍ قوي كثيفٍ قادرٍ على الانتقامِ للقتلى في معركة بَدْرٍ، والقضاءِ على قوةِ المسلمين التي أَصْبَحَتْ تُحاصِرُ قوافلَ قُرَيْشٍ وتسدُّ عليها طـرُقَها نحوَ الشّامِ، ولا بُدَّ من سَحْقِ تلك القوةِ الإسلاميّةِ الناشِئَةِ، لِتَسْتعيدَ قُرَيْشٌ هيبتها وكرامتها، وَتَسْتَرِدَّ مكانتها التجارِيَّةَ ومكانتها الدينيةَ..

تلك هي أسبابُ المعركةِ الإنتقاميةِ الضاريةِ التي أجمعتْ قُرَيْشٌ على خوضِها في «أحُدٍ»، وقد أَزْمَعَتْ أَنْ تُعدَّ لها إعداداً لمْ تشهدْ له مثيلاً من قَبْلُ، بزعامة أبي سفيان.

وقد آن لنا أن نشهدَ إعدادَ قُرَيْشٍ لمعركةِ الثأرِ.

مكة تُعدُّ حملتها الإنتقامية

أرادتْ قُرَيْشٌ أَنْ تبذلَ بسخاءٍ للإعدادِ لمعركةِ الثأر، فرصدَتْ جميعَ أرباحِهَا من قافلتِهَا التجاريَّةِ الكبيرةِ التي أَنْقَذَهَا أبو سفيان مِنِ استيلاءِ المسلمين عليها في بَدْرٍ، لِلإنفاقِ منها على تَجْهِيزِ حملتها الإنتقامِيَّةِ، وكانت أموالُ القافلةِ كُلُّها موقوفَةً في دارِ الندوةِ بِمكّةَ لِغَيْبَةِ أصحابِهَا في بَدْرٍ، فلمّا عاد من سَلِمَ منهم أجمعوا أَمْرَهُمْ على التبرّعِ بالأرباحِ كُلِّها لتجهيزِ جيشٍ كَثِيْفٍ يَزْحَفُ على يَثْرِبَ، لقتالِ محمدٍ وأصحابِهِ، وكانتِ القافلةُ أَلْفَ بَعِيْرٍ، والمالُ خمسون أَلْفَ دينارٍ، وكانوا يربحون في الدينارِ ديناراً،

فكأنهم رصدوا لمعركةِ الثأرِ خَمْسَةً وعشرين أَلْفَ دينارٍ، أودعوها لدى أبي سفيان لِيُنْفِقَ منها على تجهيزِ حملةِ الإنتقامِ.

ورأتْ قُرَيْشٌ أنْ تستعينَ بما رصدَتْ مِنْ مالٍ لِلحملةِ بالقبائلِ العربيَّةِ، تَسْتنفِرُهُم لِنُصرتِهَا، وأوفَدَتْ أربعةً من رجالها، لِلطَّوافِ على تلك القبائلِ وَاسْتِنْصَارِها: وهم عمرُوُ بنُ العاصِ، وهبيرةُ بنُ وهبٍ، وابنُ الزِّبَعْرىٰ، وأبو عَزَّةَ الجُمحيُّ، فأطاعَ الثلاثةُ وتردّد أبو عزة، لأنّه كان في جملةِ مَنْ مَنَّ عليهم محمدٌ (ص) من أسرى بَدْرٍ، فأطلق سراحهم دُونَ فِدْيَةٍ، وقد تعهد أبو عزة ألَّا يُشارك في عدوانٍ على المسلمين، ولا يُعين عدوَّهم عليهم، ولكنّ قُرَيْشاً ألحّتْ عليه، وأَغْرَتْهُ حتى رضي بالخروجِ إلى بني عبدِ مناةَ، يدعوهم إلى نصرةِ

قُرَيْشٍ، و يُؤَلِّبُ جموعَهُم على محمدٍ وأصحابِهِ.

وَاسْتنفرتْ قُرَيْشُ حلفاءهَا مِنْ بني المُصْطلقِ وبني الهونِ بنِ خزيمةَ، وهؤلاء هم أحابيشُ قُرَيْشٍ، الذين حالفوها يوماً على التناصر في اجتماعٍ بجبلِ حُبْشي بِأَسْفَلِ مكّةَ، فسموا باسم الجبلِ، فاستُجاب لِنُصرتِهَا على المُسْلمين عددٌ كبيرٌ منهم، حتى أصبَحَتْ حملةُ الإِنتقامِ تضمُ ثلاثةَ آلافِ رَجُلٍ، من بينهم مائةُ مُحارب ٍمِنْ ثَقِيْفٍ، والباقون من مكّةَ ومواليها وأحابيشها.

وجَهَّزَتْ قُرَيْشٌ جيشَهَا بالأسلحةِ الوفيرةِ، فكان فيه سبعُمائةِ دارعٍ، وحشدَتْ له من الركائبِ ثلاثةَ آلافِ بَعِيْرٍ، وزوّدَتْهُ بمائتي فَرَسٍ، وأَصَرَّتِ النساءُ في قُرَيْشٍ على السيرِ مع الجيش، لِيُحَرِضْنَ الرجالَ على الصمودِ والاستماتَةِ في القِتالِ، و يذكّرنهم قتلى بَدْرٍ،

وكانتْ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ زوجُ أبي سفيان في طليعةِ النساءِ القرشياتِ الظاعناتِ مع الحملةِ، وهي أشدُّ نِسَاءِ مكّةَ تحرّقاً لِلثّأرِ، وكان عددُ النساءِ الظاعناتِ خَمْسَ عَشْرَةَ إمرأةً.

وعقدتْ قُرَيْشٌ لجيشِها ثلاثةَ أَلْوِيَةٍ، وجَعَلَتِ اللواءَ الأكبرَ لِطَلْحَةَ بنِ أبي طلحة، من بني عبدِ الدّارِ، وجعلتْ للأحابيشِ لواءً يحملُهُ رجلٌ منهم، وكان أبو سفيانَ القائدَ العامَّ للحملةِ، وأسندَتْ قيادةُ المَيْمنةِ والمَيْسرةِ إلى رجلين من بني مَخْزُوْمٍ وهما خالدُ بنُ الوليدِ وعكرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ وَجُعِلَتْ قيادةُ الفُرْسانِ لِصفوانَ بنِ أمَيَّةَ أو لِعمرِو بنِ العَاصِ، وَقِيادَةُ الرماةِ، وقد بلغوا المائة، لِعبدِ اللهِ ابنِ أبي ربيعةَ، واختارَتْ قُرَيْشٌ شعارَهَا للتعارف في قلبِ المعركةِ: «يا لَلعُزّىٰ يا لَهُبَل!» وإلى جانبِ

هذا الشعارِ الوثني يمكنُ أن نشيرَ إلى الصَّنَمِ الذي حملتْهُ قُرَيْشٌ في هودجٍ على جملٍ، لِيرافقَ الحملةَ، وَ يَتَيَامنَ المحاربون به!.

لقد أعدَّتْ قُرَيْشٌ لحملةِ الثأرِ خير ما أعدَّتْ في تاريخِ حروبِهَا، وجهزت جيشاً لمْ تجهّزْ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ، عدداً وعُدّةً وتصميماً على القِتالِ، حتّى يَتِمَّ لمحاربيها إدراكُ الثأرِ، أو يموتوا دونَهُ!.

وتهيأ جيشُ قُرَيْشٍ للمسيرِ نحوَ المدينةِ، ولكنّه قبلَ أنْ يُغادرَ مكّةَ كانَ كتابٌ مُفصَّلٌ بأخبارِ الحملةِ وسيرِهَا في طريقِهِ إلى محمدٍ، كَتَبَهُ عمُّهُ العباسُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، وجاء فيه:

«إن قُرَيْشاً قد أجمعتِ المسيرَ إليكَ، فما كنت صانعاً إذا حلُّوا بكَ فاصنعْه، وقد وجّهوا (ذهبوا

نحوك) وهم ثلاثةُ آلاف، وقادوا مائتي فَرَسٍ، وفيهم سبعُمِائةِ دارعٍ وثلاثةُ آلافِ بعيرٍ، وأوعبوا (أكثروا) مِنَ السِّلاحِ ».

وقد دَفَعَ العَبّاسُ بكتابِهِ هذا إلى رجلٍ غفاريٍّ، لِيبلغَ المدينةَ على ناقَتِهِ السريعةِ في ثلاثةِ أيامٍ، و يُسَلِّمَهُ إلى النبيِّ فيها، وكان العباسُ مدفوعاً في ذلك بعصبيّتِهِ لابنِ أخيه الذي أَحْسَنَ معاملتَهُ عند أسرِهِ في بَدْرٍ، ووصل رسولُ العباسِ بكتابِهِ إلى المدينةِ، ولقيَ محمداً بظاهرِها، أمامَ المَسْجدِ بُقباءٍ، وهي قريةٌ على بعد ميلين من المدينةِ، فَدَفَعَ إليه الكتابَ، وقرأه عليه أُبيُّ بنُ كعبٍ. فلمّا عرف ما فيه استكتمه الخبرَ، ورجع إلى المدينةِ مُسْرِعاً، لِيَشْرعَ في اتخاذِ الأهْبَةِ، و يَسْتَشِيْرَ أصحابَهُ لمواجهةِ الموقفِ، وقصد دارَ سعدِ بنِ الربيعِ الأنصاريِّ (وهو أحدُ

النقباءِ الذين بايعوا النبيَّ ليلةَ العقبةِ) فأخبره بما جاء في كتابِ العباسِ، واستكتمه الخبرَ أيضاً، ولكنَ زوجَ سعدِ بنِ الربيعِ كانتْ في الدار، وسمِعَتْ ما دار بين النبي وزوجِها، فلمْ يبق سِرّاً، وعمّ النبأ أرجاءَ المدينةِ كلّها.

لقد أعدتْ قُرَيْشٌ حملتَها الإنتقامِيَّةَ، وهي في طريقها إلى المدينةِ، وعلى المسلمين أنْ يَتَخِذُوا الأهبةَ لخوضِ المعركةِ، ويستعدوا لِلدفاعِ عن أنفسِهم، قبل أنْ يفاجئهم أبو سفيان بجموعِهِ الزاخِرَةِ المتحرِّقَةِ للثأرِ.

وبدأ المسلمون يَسْتَعِدُّوْنَ لمواجهَةِ جيشِ المشركين الغُزاة.

المسلمون يدرسون الموقف

لم يكْتَفِ النبيُّ بما تضمَنَّهُ كتابُ عمِّهِ العباسِ إليه من أخبارٍ دقيقةٍ عن الحملةِ القُرَيشيَّةِ وجُموعِها وأعدادِها وأسحلتِها، فَبَدَأَ بإرسالِ العيونِ (الجواسيس) لِلإستطلاعِ والاسْتِكْشَافِ، وكانتْ أخبارُ تنقّلاتِ الحملةِ تبلغُ محمداً مِنْ بعضِ المسافرين القادمين على المدينةِ، وقد عَلِمَ أنّ جموعَ قُرَيْشٍ قد وصلتْ طلائِعُهَا يومَ الأربعاءِ في الرّابعِ من شوال إلى ظاهرِ المدينةِ، ثم نزلتْ قُربَ بعضِ السُّفوحِ من جبلِ أُحُدٍ، شماليّ المدينة على بعد ميلٍ منها، وأطلقَتْ إبلَهَا ترعى آثارَ الحرثِ والزَّرعِ يومَ الخميسِ حتّى أَتَتْ على كلِّ خضراء حولَ المدينةِ.

ثم أرسل النبيُّ الحبابَ بنَ المُنذِرِ لِينظرَ إلى الجموعِ الزّاحفةِ و يُقدِّرَ عددَها، وما قادَتْ معها مِنْ خيلٍ وإبلٍ، وما حَمَلَتْ من سِلاحٍ، فلمّا عاد الحبابُ وأَخْبَرَ النبيَّ بما رأى وقدَّرَ، سأله أنْ يَكْتُمَ كُلَّ ذلك عن الناسِ، كَيْلا تهولهم الحملةُ بكثرتها الكاثرةِ وأسلحتِهَا الوفيرةِ.

وشهدتْ بعضُ دورياتِ الحراسةِ المتجولةِ حَوْلَ المدينةِ بعضَ طلائعِ خيلِ المُشْرِكين، وهي تقتَرِبُ من المدينةِ وتكادُ تدخلُها، فَرَاشقَتْها بِالنَّبلِ حتى رَدَّتْها على أعقابِهَا، وذاعَ الخبرُ في أهلِ المدينةِ، وتخوّفوا من هجومٍ ليليِّ مفاجيء يقومُ به المشركون، وحَمَلَ الأنصارُ أسلحتَهُمْ، وباتَتْ وجوه الأوسِ والخزرجِ ليلةَ الجُمُعَةِ، عليهم السلاحُ، في المسجدِ ببابِ النبيِّ، يَحْرُسُونَهُ طوالَ الليلِ، وعُزِّزتْ حراسةُ

المدينةِ كلِّها حتّى الصباحِ.

وفي صَباحِ الجمعةِ، السادسِ من شوال، جَمَعَ النبيُّ أهلَ الرأي من المسلمين، ومن المتظاهرين بالإسلام ـ وهم المنافقون ـ لِلتداولِ والتشاورِ لِمواجهةِ الموقفِ.

وكان هناك رَأيانِ دار النقاشُ حولَهُما:

أولُهما: البقاءُ في المدينةِ، والتحصُّن بها، وإرغامُ قُرَيْشٍ على مُهَاجمةِ المسلمين فيها، فتكون الحربُ معركةَ حِصَارٍ تَسْتنزِفُ طاقةَ الجموعِ الزّاحفةِ قبلَ هجومِهَا، فإذا هاجَمَتْ كان المسلمون أَقْدَرَ على صدِّها والتغلّبِ عليها، وكان عبدُالله بنُ أُبَيٍّ ـ رأسُ المنافقين ـ من أنصارِ هذا الرأي، وهو رأيُ النبيِّ أيضاً، وقال ابنُ أُبَيٍّ:

ـ «لقد كُنّا يا رسولَ الله نُقاتلُ في الجاهلية

فيها، ونجعلُ النساءَ والذّراري (الأولاد) في هذه الصيَّاصي (الحصون)، ونجعلُ معهم الحِجارةَ، ونَشْبكُ المدينةَ بِالبُنْيَانِ فتكون كَالْحصْنِ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ، فإذا أقبلَ العدوُّ رمتْهُ النسوةُ والصبيانُ من فوقِ الحصونِ والبيوتِ، وقاتلناه نحن بأسيافِنَا في السِّككِ (الطرق)!

يا رسولَ اللهِ، إنّ مدينتنا عَذْرَاءُ ما فُضَّتْ علينا (ما اقتُحمت) قطُّ، وما دَخَلَ علينا عدوٌّ فيها إلاّ أَصَبْنَاهُ، وما خرجَنْا إلى عدوٍّ قطُّ منها إلاّ أصابَ منا، فدعهم يا رسولَ اللهِ، فإنّهم إنْ أقاموا أقاموا بشرِّ مُقَامٍ، وإنْ رَجَعُوا رجعوا خائبين، لم ينالوا خيراً، يا رسولَ اللهِ أَطِعْنِيْ في هذا الأمرِ، فإنّي ورثْتُ هذا الرأي عن أكابرِ قومي وأهلِ الرأي منهم، فهم كانوا أهلَ الحربِ والتجربةِ!.

وكان أكابرُ صحابَةِ النبيِّ من هذا الرأي أيضاً، من المهاجرين ومن الأنصار معاً، وقال النبي:

ـ إمكثوا في المدينةِ، واجعلوا النساء والذراري في الآطامِ (البيوت المبنية من الحجارة)، فإنْ دَخَلُوا علينا قاتلناهم في الأزِقَّةِ، فنحن أعلمُ بها منهم، ورُموا من فوقِ الحصونِ والآطام!

هذا هو الرأي الأولُ لمواجهةِ الموقفِ.

وأمّا الثاني فهو الخروجُ لِلقاءِ المشركين في معركةٍ فاصِلةٍ، وهذا رأيُ أكثريّةِ الصحابَةِ، وفيهم فتيانٌ ذوو حميّةٍ وحماسةٍ، وقد مَلأ الإيمانُ قلوبَهُم تشوقاً إلى الاستشهادِ، وبعضُهُم لمْ يشهدْ يومَ بَدْرٍ، فهو اليوم حَرِيْصٌ على أَنْ يكونَ له شرفُ الجهادِ والإيقاعِ بالمشركين، وكان حمزةُ عَمُّ النبيِّ في مُقَدِّمَةِ

القائلين بالخروجِ لملاقاةِ قُرَيْشٍ، مخافةَ أَنْ يظنَّ المشركون أَنَّ أصحابَ محمدٍ كرهوا الخروجَ وتحصنوا بالمدينةِ جُبْنَاً عن لقائِهِم، وقال بعضهم:

ــ إنّا نخشى يا رسولَ اللهِ أَنْ يظنَّ عدوُّنا أنّا كرهنا الخروجَ إليهم جُبناً عن لقائهم، فيكون في ذلك ما يُجَرّئهم علينا، وقد كنْتَ يا رسولَ اللهِ يومَ بدرٍ في ثلاثمائةِ رجلٍ فظفَّرَكَ اللهُ عليهم، ونحن اليومَ بشرٌ كثيرٌ، قد كنا نَتَمَنَّى هذا اليومَ وندعو اللهَ بِهِ، فساقَهُ اللهُ إلينا في ساحتِنَا! وقال آخر أيضاً:

ــ إنّا لا نحبُّ أَنْ ترجع قُرَيْشٌ إلى مكَّةَ لِتقولَ: حَصَرْنا محمداً وأصحابَهُ في صياصي يَثْرِبَ (حصونها) وآطامِهَا (بيوتها الحجرية)، فتتجرّأ علينا، وها هي ذي جموعها قد وَطِئَتْ نخلَنا، فإذا لم نذُبَّ (ندافع) عن وادينا لمْ يُزْرَعْ؛ وإنّ قُرَيْشاً قد

مَكَثَتْ حَوْلاً تجمعُ الجموعَ، وتستنصرُ العربَ من بواديها، وتستنفرُ أحابيشَهَا، ثم جاءُونا قد قادوا الخيلَ وامتطوا الإبلَ، حتى نزلوا بساحتِنَا، أَفَيَحْبِسُوْنَنَا في بُيوتنا وصياصينا، ثم يَرْجعونَ وافرين لمْ يُكْلَمُوا (يُجرحوا)، ولئن فعلنا لَنَجِدَنَّهُم يزدادون جُرْأَةً، و يشنُّون علينا الغاراتِ، و يقطعون الطريقَ علينا!

وكان النبيُّ يستمعُ إلى أنصارِ هذا الرأي، وهو لما يرى مِنْ إلحاحِهِم كارهٌ، وقال حمزةُ، وكان صائماً يومه:

ــ والذي أنزلَ عليكَ الكتابَ، لا أذوقُ اليومَ طعاماً حتّى أقاتِلَهُمْ اليومَ بسيفي خارجاً من المدينةِ!

وقال النبيُّ، وذَكَرَ وَفْرَةَ الجموعِ الزّاحفةِ وكثرةَ

استعدادِها وشدةَ إصرارِها على الثأرِ من المسلمين:

ـ إني أخافُ عليكمُ الهزيمة!

ولكنّ أغلبيةَ المسلمين كانتْ ترى الخروجَ لِقتالِ قُرَيْشٍ، فلم يَرَ النبيُّ بُدًّا مِنَ الموافقةِ على رأي الأغلبيةِ، لأنَّ الشورى أساسُ نظامِ المجتمعِ الإسلاميِّ الذي يبنيه، إلاّ فيما نَزَلَ فيه وحْيٌ من عندِ اللهِ.

وانفضَ المجلسُ الاستشاريُّ، وقد حان الوقتُ لِصلاةِ الجُمُعَةِ، فَصَلّى النبيُّ بِالنّاسِ، وأعلنَ أنَّ النَّصْرَ للمؤمنين ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لِعَدوِّهِم، وأقامَ بعدَ الصلاةِ يَعِظُهُمْ، ويَحثُّهُمْ على الجِدِّ والاستعدادِ والجِهادِ، وصارتْ حشودُ المسلمين تتوالى من أطرافِ المدينةِ وعواليها (ضواحيها) وتتجمعُ في انتظارِ سَاعَةِ الخروجِ.

وَدَخلَ النبيُّ بيتَهُ، ومعه أبو بكرٍ وعمرُ بنُ الخطابِّ، لِيَسْتَعِدَّ للخروجِ، وظَلَّ المسلمون في المسجدِ يتحاورون، وأدركَ بعضُهم أَنَّهم استكرهوا النبيَّ على الخُروجِ، فَنَدِمُوا على ما فعلوا، وقال أُسيدُ ابنُ حُضيرٍ وسعدُ بنُ مُعَاذٍ، وكانا مِمَّنْ أشارَ بالتحصُّنِ بالمدينةِ، للذين ألحّوا على النبيِّ بالخروجِ:

ــ لقد رأيْتُمْ رسولَ الله ِيرى التحصُّنَ بالمدينةِ، فقلتم ما قُلتم، واستكرهتموه على الخروجِ وهو له كارِهٌ، فرُدُّوا الأمرَ إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هَوىً أو رأياً فَأَطِيْعُوْهُ!

وَلانَ المتشدّدون، وحسبوا أَنّهم قد أخطأوا في إلحاحِهم، وَعَمَّهُمُ الندمُ، فلمّا خرجَ النبيُّ إليهم لابِسَاً درعَهُ، مُتَقَلِّدَاً سيفَهُ، متهيئاً للخروجِ، قال قائلُهُم:

ـ ما كان لنا يا رسولَ اللهِ أَنْ نَسْتَكْرِهَكَ، فاصنع ما بدا لكَ، والأمرُ إلى اللهِ ثُمَّ إليكَ!

فأجاب النبيُّ:

ـ ولكنّي دعوتكم إلى هذا الحديثِ فأبيتُم، وما ينبغي لِنبيٍّ إذا لَبِسَ لأمَتَهُ (لباس الحرب وأدواتها) أنْ يَضَعَهَا (يخلعها) حتى يحكمَ اللهُ بينه وبين أعدائِهِ، إنظروا ما آمرتكم به فاتّبعوه، امضُوا على اسمِ اللهِ، فلكم النصرُ ما صبرتُم!

وهكذا لم يتراجعِ النبيُّ عن قرارِ الأغلبيةِ بالخروجِ، وأَثْبَتَ ألاَّ مجالَ لِلترددِ في التنفيذِ بَعْدَ إتخاذِ القرارِ بالأكثريةِ، فهذا هو النظامُ، ولا بُدَّ من مراعاتِهِ لِنَجاحِ حُكْمِ الشُّوْرى، وعلى كتائبِ جيشِ الإيمانِ أَنْ تُغادِرَ الآنَ المدينةَ إلى ميدانِ القِتالِ.

خروج المسلمين إلى أحد وانسحاب المنافقين

لَمْ يَغِبْ عن تقديرِ أبي سفيانَ أَنْ يكونَ المسلمون قد علموا بالحملةِ التي يقودُها لِلثأرِ منهم منذ خروجِهَا من مكّةَ، وخشي أَنْ يَتَحَصَّنَ المسلمون بمدينتِهِم فلا يخرجوا منها، وراح يُفكِّرُ في خطة تُرغمهم على الخروجِ مِنْ وراءِ صياصيهم (حصونهم) لِلقِتالِ، وقال لبعضِ رجالِهِ.

ــ أحلف باللهِ أَنّهم جاءوا محمداً فخبّروه مسيرَنا، وحذَّروه، وأخبروه بعددنا، فهُمُ الآنَ يَلْزَمُون صياصيهم، ولنْ نستطيعَ أَنْ نُصيبَ منهم ما

نريدُ إنْ لمْ يُصْحِرُوْا (يخرجوا إلى الصحراء) لنا!
فقال صفوانُ بنُ أمَيَّةَ، وكان على خيلِ قُرَيْشٍ كما قَدَّمْنا:

ـ إنْ لمْ يُصحروا لنا عَمَدْنا إلى نِخْلِ الأوسِ والخزرجِ فقطعناه، فتركناهم ولا أموالَ لهم، ولن يستطيعوا إصْلاحَ ما أفسدناه أبداً!

ـ ولكنّا نريدُ أَنْ يُصْحِرُوا لنا لِنُصِيْبَ من رجالهم ما فيه الثأرُ لِقَتْلانا بِبَدْرٍ، ولن تشتفيَ نفوسُنا بما دونَ ذلك!

ـ ما نزالُ نأملُ أَنْ تدفعَهُمْ حميّةُ فتيانِهِم إلى ما نُريدُ، فإنْ أَصْحَرُوا لنا فعددُنا أكثرُ من عددِهِم، وسلاحُنا أكثرُ من سلاحِهِم، ولنا خيلٌ ولا خيلَ معهم، ونحن نقاتلُ على وترٍ (ثأر) عندهم، ولا وتر لهم عندنا!

ــ إنْ خرجوا إلينا من صياصيهم المنيعةِ رجونا أنْ تكونَ لنا فيهم وقعةٌ مذكورةٌ تُنسينا آلامنا وأحزانَنا ببَدْرٍ!

ولمْ يَطُلِ انتظارُ قُرَيْشٍ لخروجِ المسلمين من مدينتهم للقتالِ، وبُعَيْدَ العصرِ من يوم الجُمُعَةِ (السادس من شوال) خرجَ النبيُّ من بيتِهِ مُدججاً بسلاحِهِ، ليشهدَ حشدَ المسلمين، وعقد ثلاثةَ ألويةٍ.

لواءَ الأوسِ: ودفعه إلى أسيدِ بنِ حُضيرٍ.

ولواءَ الخزرج: ودفعه إلى حُبابِ بنِ المُنذرِ.

ولواءَ المهاجرين: ودفعه إلى مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ من بني عبدِ الدّارِ.

ثم ركبَ النبيُّ (ص) فرسَهُ، وتقلَّدَ قوسَهُ، وخرجَ بالجيشِ، وأمامَهُ حرسه الخاص، وعليه

السَّعْدانِ: سعدُ بنُ عبادةَ وسعدُ بنُ مُعاذٍ، والناسُ عن يمينِهِ وشِمالِهِ حتى انتهى إلى (الشيخين) في ظاهرِ المدينةِ، في الطريقِ إلى أحُدٍ، فنزلَ فيه، وعَسْكَرَ المسلمون هناك، وكانوا ألفاً، فيهم مائةُ دارعٍ، وفَرَسَانِ (أحدُهما للنبيِّ، والآخرُ لأبي بُردةَ بنِ نيارٍ) ونظر النبيُّ في الحشودِ، فرأى كتيبةً لا يعرِفُ أهلَهَا، فسألَ عنها فقِيْلَ:

ـ هؤلاءِ حُلفاءُ عبدِالله بنِ أبيِّ مِنَ اليهودِ!

فرفض النبيُّ أَنْ يستعينَ بهم وقال:

ـ لا نستنصر بأهلِ الشِّرْكِ على أَهْلِ الشِّرْكِ، ما لَمْ يُسْلِمُوا! فانصرفَ اليهودُ عائدين إلى المدينةِ، وراحَ النبيُّ يتفقدُ كتائبَ المسلمين، وعُرِض عليه غلمانٌ من فتيان المسلمين، يتحرّقون شوقاً إلى القتالِ، برغم صَغَرِ سِنّهم، فردَّهم، ثُمَّ أجازَ واحداً

منهم هو رافعُ بنُ خُديجٍ لأنّه يُحِسنُ الرماية، فقال صاحبٌ له من الغلمان هو سَمُرَةُ بن جُنْدَب:

ـــ أجاز رسولُ الله رافعاً وردّني، وأنا أصرعُه!

فأعلموا النبيَّ بقولِهِ، فأَمَرَ الغلامين أَنْ يتصارعا، فلمّا صَرَعَ سَمُرَةُ رافعاً، أجازه أيضاً.

وانتهى العرضُ مع غيابِ الشمسِ، وصلى النبيُّ المغرِبَ بأصحابِهِ، وأقام كتيبةً من خمسين رجلاً لحراسةِ المعسكرِ واستعملَ عليها محمدَ بنَ مَسْلمةَ، وتطوَّعَ واحدٌ من أصحابِهِ بملازمتِهِ طَوالَ الليلِ، لا يُفارِقُهُ لحراستِهِ أثناءَ نومِهِ، وعندَ السَّحَرِ أفاقَ النبيُّ من نومِهِ، واستدعى الأدِلاّءَ وقد استعدَّ الجيشُ للمسيرِ، فأمرهم أن يسلكوا أقرب الطرقِ إلى أحُدٍ، من مَنْفَذٍ لا يمرُّ بهم على مُعَسْكَرِ قُرَيْشٍ، فاجتازوا في

حَرَّة بني حارِثَةَ، وتسرّبوا من بعض البساتين، وهو حائطٌ يملكه منافقٌ أعمى، لم يرضَ دخولَهُمْ منه، فلمْ يعبأوا به، حتّى وافوا أُحُداً وأطلوا على معسكر قريش منه وقد حانتْ صلاةُ الصبحِ، فأمَّ النبيُّ أصحابَهُ صفوفاً، وقد طَلَعَ فجرُ السبتِ، في السابع من شوال، لِتَشْهَدَ سفوحُ أُحُدٍ وشعابُهُ في هذا اليوم معركةً طاحنةً كثيرةَ الأهوالِ، امتَحَنَ اللهُ بها صَبْرَ المسلمين، لِيُعرَفَ المؤمنون الصادقون منهم، والمنافقون الكاذبون!

وفي صباحِ هذا اليومِ. وقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ المعركةُ بين المسلمين والمشركين، كَشَفَ رأسُ النفاقِ عبدُالله بنُ أبَيٍّ عن وجهِهِ وقال لجماعتِهِ:

ــ أشرتُ على محمدٍ بالرأيِّ، فأبى إلاّ طواعية الغلمان، وأطاعهم وعَصاني! ما ندري علامَ نقتل

أنفسَنا ها هنا أيُّها الناسُ! وتجمّعَ المنافقون حَوْلَ ابنِ أُبَيٍّ، وأظهروا ما كانوا يُبطنون، وأَزْمَعُوا على العودةِ إلى المدينةِ، فرجع ابنُ أُبَيٍّ بهم، وكانوا ثلاثمائة رجلٍ، وهالَ بعضَ المسلمين أنْ يروا انصرافَ ابنِ أُبَيٍّ بثُلثِ النّاسِ راجعاً إلى المدينةِ، فقالوا لهم:

ـ يا قومْ نذكّركم اللهَ ألاّ تخذلوا قومَكُم ونبيّكم، وقد حَضَرَ مِنْ عدوِّهم ما ترون، فَثُوْبُوا إلى رُشدِكُم، واذكروا ما شرطتم لنبيّكم أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسَكم وأولادَكم ونساءكم! فأجاب رأسُ النِّفَاقِ:

ـ نحنُ ناصِرُوْهُ في مدينتِنا، وقد أشرتُ عليه بالبقاءِ فيها، فخالفني وأطاعَ الولدان! وعصاني وأطاع من لا رأيَ له!

وظلَّ عبدُالله بنْ عمرٍو بنِ حَرام الأنصاري (من بني سلمة) يُلح على المنافقين العائدين أنْ يرجعوا إلى أحد، حتى دخلوا أزقةَ المدينةِ، فلّما استعصوا عليه، قال لهم:

ــ أبعدَكم اللهُ يا أعداء اللهِ، إنْ اللهَ سيُغني النبيَّ والمؤمنين عن نصرِكم!

وكرَّ راجعاً إلى أحدٍ يعدو، حتى لَحِقَ رسولَ اللهِ (ص) وهو يُسوِّي صفوف أصحابهُ قَبْلَ المعركةِ، ولمْ يَبْقَ فيهم غيرُ المؤمنين الصادقين حقاً، وعددُهم سبعُمِائةٍ، سيقاتلون ثلاثةَ آلافِ مُشْرِكٍ من قُرَيْشٍ وحلفائها وأحابيشها، وفي صدْرِ كلِّ قُرَيشيٍّ منهم نارٌ لِلثأرِ لا تنطفىء بغيرِ سَحْقِ المسلمين وهزيمتهم هزيمةً ماحقةً!

الإسلام والشرك وجهاً لوجه قُبيل الموقعة

اختار النبيُّ بعضَ السفوحِ من جبلِ أحُدٍ ليعسكرَ بجيشِهِ فيها، واستقبل المدينةَ، وجعلَ هضابَ أحُدٍ من وراءِ الجيشِ، ظهراً له ومُسْتَنداً، وراح يُشرف بنفسِهِ على تنظيمِ صفوفِ المسلمين، وقَسَّمَ الجيشَ ميمنةً وميسرةً، وجعل على الميمنةِ الزبيرَ، وعلى الميسرةِ المُنْذِرَ بنَ عمروٍ الخزرجيَّ، وجعلَ الرماةَ خمسين، وجعلَ عليهم عبدَاللهِ بنَ جُبيرٍ، وأمرهم أنْ يلزموا مكانهم في هضبةٍ من هِضابِ

أُحُدٍ، تُدعى «عينين» في مؤخرةِ الجيشِ، وقال لهم:

ـ إحموا لنا ظهورنا، فإنّا نخافُ أنْ يجيئونا مِنْ ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإنْ رأيتمونا نهزمهم حتّى ندخلَ عسكرهَمُ فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تُعينونا ولا تُدافعوا عنا، وارشُقوا خيلَهم بِالنَّبلِ، فإنَّ الخيلَ لا تُقْدِم على النَّبلِ!

وراح النبيُّ يُعدِّلُ صفوفَ الجيشِ، وهو يمشي بينها على رجليه، و يُبوّىء أصحابَهَ مواقِعَهُم فيها، ويختارُ في مقدِّمةِ الصفوفِ النخبة الممتازةَ المجرَّبَةَ من صناديدِ المسلمين: من أمثالِ حمزةَ بنِ عبدِ المطّلبِ وعليِّ بنِ أبي طالبٍ وعُمَرَ بنِ الخطّابِ والزبيرِ بنِ العَوّامِ وأبي بكرٍ الصديق وطلحةَ بنِ عُبيْدِ اللهِ

ومُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ وعبدِالله ِ بنِ جحش وسعدِ بنِ معاذٍ وسعدِ بنِ عبادةَ وسعدِ بنِ الربيعِ وأبي دُجَانَةَ مالكِ بنِ خَرَشَةَ وسعدِ بنِ أبي وقّاص ٍ وأنسِ بنِ النضر ِ وغيرِهِم منِ أهلِ البأسِ والاقدامِ والنجدةِ.

وبعد أنْ انتهى النبيُّ من تعبئةِ جيشِهِ، ورصَّ صفوفِهِ وتحديدِ مواقعها، وتوزيعِ المهماتِ على أصحابِهَا، دفعَ اللواءَ الأعظمَ إلى مصعبِ بنِ عُمَيْرٍ، فتقدَّمَ به بين يديهِ، ثم وقف في الجيشِ خطيباً فقال:

ـ «يا أيُّها الناسُ أوصيكم بما أوصاني بِهِ الله في كتابِهِ، من العَمَلِ بطاعَتِهِ وَالتَّنَاهي عن محارِمِهِ، ثم إنّكم اليومَ بمنزلِ أَجْرٍ وزُخْرٍ لمن ذَكَرَ الذي عليه ثُمَّ وطَّنَ نفسَه له على الصبرِ واليقينِ والجدِّ والنشاطِ، فإنّ جِهادَ العدوِّ شديدٌ كريهٌ، قليلٌ مَنْ

يصبرُ عليه إلاّ مَن عَزَمَ اللهُ لـه رُشْدَهُ.. فافتتحوا أعمالكم بالصبرِ على الجهادِ، والتمسوا بذلك ما وعدكُمُ اللهُ، وإنّ الاختلافَ والتنازعَ والتثبُّطَ (التخاذل) من أمرِ العجزِ والضعفِ، وهو مما لا يُحبُ اللهُ ولا يُعطي عليه النصرَ ولا الظَّفرَ... والمؤمنُ من المؤمنين كالرأسِ من الجسدِ، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جَسدِهِ، والسلام عليكم».

ووقف الجيشُ الإسلاميُّ متأهباً للقتال، والشعارُ الذي يتعارفُ به المؤمنون يومذاك: «أمِتْ أمِتْ» والنبيُّ ينظرُ إلى جموعِ قُرَيْشٍ وقد تحرّكت لِتأخذَ مواقِعَها في القتال. وهو يتضرّعُ إلى اللهِ بدعائِهِ:

ـــ اللهُمّ بِكَ أجولُ وَبِكَ أَصُوْلُ!

وكان على النبيِّ درعان ومِغْفَر (زرد يلبسه

المحارب تحت القلنسوة) وبيضة (خوذة)، وقد تنكّب قوسَهُ، وجرّدَ سيفاً صارماً عرضه على أصحابِهِ وقال:

ــ مَنْ يأخذُ هذا السيفَ بحقِّهِ؟

فتبادَرَ إليه رجالٌ ليأخذوه، وفيهم عليٌّ وعُمرُ والزبيرُ، فأمسكَهُ عنهم، حتّى قامَ أبو دُجانةَ فقال:

ــ وما حقُّهُ يا رسولَ اللهِ؟

ــ أَنْ تضرِبَ به العدوَّ حتى يَنْحَنِيَ، ولا تَقْتُلْ به مُسْلِمَاً، ولا تفرّ به عن كافر!

ــ أنا آخذه بحقِّهِ.

فدفعَهُ النبيُّ إليه. وكان أبو دُجانةَ الأنصاريُّ من أشجعِ الناسِ، وكانتْ له عصابةٌ حمراء يُعصبُ بها رأسَهُ في القِتالِ، يُسميها عصابةَ الموتِ، لأنّهُ يخوضُ بها المَيْدانَ، مُجْمِعَاً على القتالِ حتى الرمقِ

الأخيرِ، فلمّا تناولَ سيفَ النبيِّ، عَصَبَ رأسَهُ بعصابةِ الموتِ، وراح يَخْتَالُ بين الصفّين، فقال محمدٌ لمّا رآه يتبخترُ في مشيتِهِ:

ـ إنّها لَمِشيةٌ يُبغضُها اللهُ إلاّ في مِثْلِ هذا المَوْطِنِ!

وكانتْ جموعُ قُرَيْشٍ أثناءَ ذلك قد أخذتْ مواقعَهَا، في مواجهةِ الجيشِ الإسلاميِّ، بقيادةِ أبي سفيانَ بنِ حربٍ، في تعبئةٍ تامةٍ وتصميمٍ على الثأرِ من محمدٍ وأصحابِهِ، وكانت هِنْدٌ زوجُ أبي سفيانَ ومَنْ معها من نساءِ المشركين، أمامَ صفوفِ قُرَيْشٍ يضرِبْنَ بالطّبولِ والدُّفوف ويحرِّضْنَ الرجالَ على الثباتِ والصمودِ والانتقامِ، وكانتْ أصواتُهن تبلغُ أسماعَ المسلمين في مواقِعِهم، فيحثُّهمُ النبيُّ على

الصبرِ، و يدعو ربَّه و يتضرّعُ إليه، و يقول:

ــ اللهم إني بك أجولُ وأصولُ، وفيكَ أقاتلُ، حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ.

وهكذا وقف التوحيدُ الإسلاميُّ والشركُ الوثنيُّ متقابلين وجهاً لوجه، على سفوحِ جبلِ أُحُدٍ، ضحوةَ نهارِ السبتِ، السابعِ من شوال، لخوضِ معركةٍ رهيبةٍ، يُفْرِدُ لها تاريخُ فجرِ الإسلامِ صفحةً حزينةً سوداءَ، مكتوبةً بالدماءِ والدموعِ!

مكر أبي سفيان لعزل الأنصار عن المعركة

حاولَ أبو سفيانَ قبلَ نشوبِ القِتالِ والتحامِ الطرفينِ محاولتينِ ماكرتينِ لِتمزيقِ وحدةِ الجيشِ الإسلاميِّ، والتفريقِ بينَ المهاجرين والأنصارِ، لِيَسْهُلَ على قُرَيْشٍ القضاءُ على المسلمين، بَعْدَ بَثِّ الفُرْقَةِ والشتات بينهم، ولكنَّهُ أخفقَ إخفاقاً ذريعاً، ولم يُصبْ ما يريدُ في كلتا المحاولتين.

ففي المحاولةِ الأولى أرسلَ إلى الأنصارِ رسولاً يفاوضُهُم و يدعوهم إلى الإنصرافِ من المعركةِ آمنين

مُسالمين، وتركِ قُرَيْشٍ لثأرِها مع محمدٍ والمهاجرين، وكان مما قاله رسولُه لهم:

ـــ يا معشرَ الأوسِ والخزرجِ، خلُّوا بيننا وبين أبن عمِّنا، ننصرفْ عنكم، فإنّه لا حاجةَ لنا بقتالِكم!

ولكنّ مكرَ أبي سفيانَ لمْ يَجِدْ لدى الأنصارِ ما يسعى إليه، وردّوا رسولَهُ بما يكرهُ، وأخفقَ دهاءُ أبي سفيانَ في تفتيتِ وحدةِ المؤمنين، ولم يجد في صفوفِ المسلمين ثغرةً ينفذُ منها بتدبيرِهِ ومكرِهِ.

وفي المحاولةِ الثانيةِ عاود أبو سفيان مسعاه لِيَصْرِفَ الأوسَ عن المعركةِ، ويُضعفَ جبهةَ المسلمين بذلك، فأرسلَ أبا عامر الراهب الأوسي لِيُغريهم بالإنحيازِ إليه، وكان أبو عامرٍ هذا قد لجأ

إلى مكَّةَ مع جماعةٍ من الأوسِ بعد هجرةِ النبي إلى المدينةِ، مخالفين للمسلمين، ساعين في التحريض عليهم، وكان أبو عامرٍ يزعم لِقُرَيْشٍ أنَّه إذا نادى قومَهُ من الأوسِ المسلمين الذين يحاربون في صف محمدٍ، استجابوا له، وانحازوا معه، ونصروا قُرَيْشاً على محمد! واقترب أبو عامرٍ (مع لفيفٍ من جماعتِهِ ومن عبيدِ مكَّةَ، جعل أبو سفيان قيادته إليه) من جموعِ الأوسِ وصاح:

ـ يا قومي، يا معشرَ الأوسِ، أنا أبو عامرٍ الراهب...

فلمْ يُمهله أبناءُ عشيرتِهِ للاسترسالِ في خطابهم، وأجابوه بصوت واحد:

ـ لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسقُ!

وتصدوا له بما يكره، وكان فيهم ولدُه حنظلةُ بنُ

أبي عامرٍ، وكان من أَصْدَقِ المؤمنين يقيناً وحماسةً، فقال أبو عامر:

ـ يا ويلتاه! لقد أصاب قومي بعدي شرٌ كبيرٌ

وحاولَ أَنْ يعاودَ خطابَ قومِهِ، فانهالتْ عليه وعلى لفيفه من حوله، الحجارةُ، فتراجعوا، وراحوا يرمون المسلمين بالحجارةِ، وأخفقَ تدبيرُ أبي سفيان في عزل الأوسِ عن المعركةِ، ولم يستطعْ أن يحقِّقَ غرضَهُ!

ولكنّ هذا التراشقَ بالحجارة بين جماعةِ الأوسِ ولفيفِ أبي عامر الراهب كان إيذاناً بِبِدايةِ نُشوبِ القتالِ في أحد بين المسلمين والمشركين.

وقائع المعركة في أدوارها الثلاثة

كان النبيُّ قد أَمَرَ جيشَهُ بعد تأهبِهِ للقتال في مواقِعِهِ ألاَّ يبدأ أحدٌ بالقتال إلا بَعْدَ صدورِ أمرٍ منه، باستثناء مفرزةِ الرماةِ التي تمركزت فوقَ هضبةِ (عينين) فقد أوصاها أَنْ تُبادِرَ إلى رِشْقِ خيلِ المشركين بنبالها إذا حاولت التسرُّبَ من مدخل الشِّعبَ (الطريق الجبلي) لِلالتفافِ وراءَ ظهورِ المسلمين، والإيقاعِ بهم مِنْ خلفِهِم.

وكانتْ مواقعُ المسلمين على السفوحِ من جبلِ أحدٍ، مُطِلّةً على بَطْنِ وادي قناة، حيثُ أخذتْ جموعُ قُرَيْشٍ مراكزَها، في منخفض من الأرض، بالنسبة

لمواقعِ المسلمين المشرفةِ، وكان المسلمون لذلك يرون تحركات أعدائهم رأيَ العينِ، واهتم النبيُّ بمراقبةِ المُجَنَّبتين (الجناحين) في جيشِ قُرَيْشٍ، لاعتمادِها على قوةِ الفُرْسانِ، وحركةِ الخيلِ السريعةِ، وكان عددُها مائتين، ولمْ يكنْ في جيشِ المسلمين غيرُ فرسين، ولهذا كانت هذه القوةُ المتحركةُ هي مصدرٌ الخطرِ الذي حرصَ النبيُّ على اتقائهِ، وأعدَّ مفرزةَ الرماةِ في موقِعَها الاستراتيجي لمواجهتِهِ.

وكان جيشُ قُرَيْشٍ في أُحُدٍ، بالإضافةِ إلى تفوّقِهِ العدديِّ الكبيرِ كما قدّمنا (أكثر من أربعة أمثال المسلمين)، وبالإضافةِ إلى تفوّقِهِ في التسليحِ والتموينِ، وانفرادِهِ بقوّتِهِ الكبيرةِ من الفُرْسانِ، يمتازُ بقياداتٍ موهوبةٍ مُجرّبَةٍ ماهرةٍ، موتورةٍ حريصةٍ على

إدراكِ ثأرِها وغسلِ العارِ الذي ألحقَتْهُ معركةُ بَدْرٍ بها: فالقائدُ العامُّ أبو سفيان بدهائِهِ وتجاربِهِ وذكائِهِ وعُنْفوانِهِ في وسطِ الجيشِ، وعلى الميمنةِ خالدُ بنُ الوليدِ بشجاعتِهِ وعبقريتِهِ الحربيةِ ووعيه القياديِّ ومؤهلاتِهِ العظيمةِ التي ستجعلُ منه «سيفَ اللهِ المُسْلُولَ» بعدَ حينٍ، وعلى الميسرةِ عكرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ، وهو مِثْلُ خالدٍ، بطلٌ من أبطالِ بني مخزوم، كانت لهم قيادةُ الخيلِ في قُرَيْشٍ في الجاهلِيَّةِ، وستكونُ لهم في الإِسلامِ بطولاتٌ مذكورةٌ، يتناقلُ تاريخُ الفتوحاتِ الإسلاميّةِ أخبارَهَا بالتقديرِ والإعجابِ. وكان على قيادةِ المُشَاةِ صفوانُ بنُ أميّةَ، وعلى قيادةِ الرُّماةِ عبدُاللهِ بنُ أبي ربيعةَ، وكلاهما من أبطالِ قُرَيْشٍ المعدودين، وقد وضع أبو سفيان لفيفاً من عبيدِ قُرَيْشٍ بإمرةِ أبي عامر الراهب

الأوسي، فقامَ أبو عامر يومَ أحدٍ بحفرِ عددٍ من الحفر في أرضِ المعركةِ، جعلها كالخنادقِ، وموّهَ غطاءَها، ليقعَ فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، كيداً منه وحقداً على محمدٍ وأصحابِهِ، وسنرى أَثَرَ هذه الحُفرِ في وقائعِ المعركةِ بعد قليلٍ.

كان الجيشُ الإسلاميُّ يواجه في أُحُدٍ امتحاناً عسيراً أمامَ قوى غلاّبة من المشاةِ والفرسانِ والرماةِ، تقودها كفاياتٌ ذكيةٌ ماهرةٌ ماكرةٌ، تُحْسِنُ التدبيرَ والتخطيطَ والكيدَ، عن موهبةٍ وتجربةٍ، ولكنَّ الجيشَ الإسلاميَّ كان يمتلكُ ميزةً واحدةً لا تمتلكها جُموعُ قُرَيْشٍ الزّاحفةِ: وهي الإيمان بالعقيدةِ الجديدةِ التي تجعلُ المجاهدين من أصحابِ محمدٍ يتهافتون على الموتِ، بُغيةَ الشهادةِ في سبيلِ اللهِ، للفوزِ بالجنَّةِ ونعيمِها الخالدِ.

وعلى هذا الإيمانِ كان يعتمدُ النبيُّ للانتصارِ بجيشهِ القليلِ المؤمنِ على الجموعِ المُشركةِ الكثيرةِ، وقد حَقَّقَ الإيمانُ للمسلمين مُعْجِزَةَ النصرِ على أعدائهم في صبيحةِ يوم أحدٍ، ولكنّ المعركةَ في ذلك اليوم مرّتْ بثلاثةِ أدوارٍ مختلفةِ المواقفِ والنتائج:

من النصرِ ــ إلى الهزيمةِ ــ إلى الإنسحابِ المنظّمِ.

وسنشهدُ وقائعَ المعركةِ في كلِّ دورٍ من أدوارِها الثلاثةِ.

الدور الأول: النصر

بعد التراشقِ بالحجارةِ بين الأنصارِ من الأوسِ ولفيفِ أبي عامر الراهب نشبَ القِتالُ في أحدٍ، وكانَ المشركون هُمُ البادئين بالهجومِ: فقد انضمَتْ كوكبةٌ من الفرسانِ بقيادةِ عِكْرِمَةَ بنِ أبي جَهْلٍ إلى لفيفِ أبي عامر وهم من المشاةِ، وهاجمتِ الجناحَ الأيمنَ من المسلمين. فتصدى الزبيرُ بنُ العَوّامِ بميمنتِهِ المُتماسكةِ الصّفوفِ لِلمُشاةِ، وصدُّوها، وأمطرَ الرماةُ خيلَ المشركين برشقاتٍ مُحْكَمَةٍ مِنَ النبالِ، فارتدّت، ورمى المسلمون الخيلَ بالحجارةِ، من مواقعِهِم المُشْرِفةِ، ودحرجوا عليها الصخور،

فتراجَعَ الفُرسانُ مُبْتَعدين عن سفوحِ الجبلِ، والصخورُ تلاحقُهُم، وولّى أبو عامر ومُشاتُه مُدبرين، وكانتِ النساءُ القرشياتُ يضرِبْنَ بالطبولِ والدفوف، يُحرِّضْنَ المشركين على الهجوم والصمودِ، و يُغنّين:

نحنُ بناتُ طارق نمشي على النمارقْ (الوسائد)
والمسكُ في المفارق والدرُّ في المخانق (الأعناق)
إنْ تُقبلوا نُعانق ونفرش النمارقْ
أو تُدبروا نُفارق فراقَ غيرِ وامقْ (غير مُحب)

حتى إذا اقترَبْنَ من حملةِ اللواءِ، وهم من بني عبد الدار، صاحَتْ هِنْدُ بنتُ عتبةَ، زوجُ أبي سفيان، تستثير نخوتهم:

وَيْها بني عبد الدار وَيْها حُماةَ الأدبار (ظهور الناس)
ضرباً بكل بتّار (سيف قاطع)

فتحمّس العبدريون، وكان أبو سفيان قبلَ يومٍ قد تحدّاهم، وهو يريد تحريضهم للصمود حول اللواء، وقال لهم:

ــ يا بني عبد الدار، إنكم وليتُم لواءنَا يومَ بَدْرٍ، فأصابنا ما قد رأيتُم، وإنما يُؤتى الناسُ مِنْ قِبَلِ راياتِهِم، إذا زالتْ زالوا، فإمّا أن تكفونا لواءنَا (أن تكونوا أكفياء لحمايته) وإمّا أن تُخلُّوا بيننا وبينه، فنكفيكم إياهُ!

وغضب العبدريون وقالوا لأبي سفيان:

ــ نحن نُسلم إليكَ لواءنَا! ذاك لا يكون، وستعلم غداً إذا التقينا كيفَ نصنَعُ!

وأقبل العبدريون على المعركةِ مُسْتمِيتين، وقد أستثارهم تحدّي أبي سفيان لهم، وهيَجَّتْهُم صرخاتُ هِنْدٍ زوجِهِ فيهم، وعندما شهِدَ سيدهم طلحةُ بنُ أبي

طلحةَ العبدري تراجعَ فرسانُ قريشٍ بَعْدَ محاولاتِهم المتكررةِ لِلنيلِ من جناحي المسلمين دونَ جدوى، لِيقظةِ الرماةِ المسلمين، وثباتِ الصفوفِ المتراصّةِ من أصحابِ محمدٍ أمامَ هجومِهم، اندفع طلحةُ، وكان يحملُ لواءَ قُرَيْشٍ، على جَمَلٍ يركبُهُ، ويصيحُ في المسلمين، طالباً من يُبارزه، وكان طلحةُ من الشجعانِ المعدودين، وكان المسلمون يُسمّونَهُ (كبش الكتيبة)، فلمْ يخرجْ إليه أحدٌ، فعاود النداءَ متحدياً:

ـ يا معشرَ أصحابِ محمدٍ. إنكم تزعمون أنَّ اللهَ يُعجّلنا بسيوفكم إلى النار، وأنّه يُعجّلكم بسيوفنا إلى الجَنّةِ، فَهلْ أحدٌ منكم يُعجّلُه سيفي إلى الجنةِ، أو يُعجّلُني سيفُهُ إلى النّارِ؟

فأحجم الناسُ، واندفع الزبيرُ نحوَه، ولم يُمْهِلْهُ

حتّى ينزلَ عن جملِهِ إلى الأرضِ، بَلْ وَثَبَ عليه وثبةَ الليثِ حتّى صار معه على جملِهِ، وهوى به إلى الأرضِ، وبَرَكَ عليه، والنبيُّ يراقِبُ صراعَهُما، فلمّا عاجله الزبيرُ بِضَرْبةٍ من سيفِهِ فَصَلَتْ رأسَهُ عن جسدِهِ، سُرَّ النبيُّ سروراً عظيماً، ورفع صوتَهُ بالتكبيرِ، فكبّر المسلمون وراءهُ، وأسرعَ أخٌ لِطلحةَ، وهو أبو سعد بنِ أبي طلحة، فحملَ اللواءَ، وراحَ يدعو المسلمين إلى المُبارزةِ، فلمْ يخرجْ إليه أحدٌ، فراح يجولُ بين الصفين، ويُنادي:

ــ يا أصحابَ محمدٍ، زعمتم أنَّ قتلاكم في الجنةِ، وأنَّ قتلانا في النارِ! كذبتم واللاتِ، لو تعلمون ذلك حقاً لخرجَ إليَّ بعضُكم! فخرج إليه عليُّ بنُ أبي طالبٍ، فاختلفا ضربتين، فضربه عليٌّ فصرَعَهُ، ثم انصرفَ عنه ولم يُجهِزْ عليه، لأنه كشف

عن عورته وسأله بالرحم أن يُبقي عليه، ولكنّ سعدَ بنَ أبي وقّاص ٍ رماهُ بسهْمٍ فقتله! فأسرعَ أخٌ ثالثٌ لِطلحةَ، وهو أبو شيبةَ عثمانُ بنُ أبي طلحةَ، فحمل لواءَ المشركين، وكان النبيُّ أعطى الأمرَ للصفوف الأولى من المسلمين بالهجوم، فانقض عمُّهُ حمزةُ بنُ عبدِ المطّلبِ على عثمانَ، وضربَهُ بالسيفِ على كاهِلِهِ فقطعَ يدَهُ وكَتِفَهُ وأجهزَ عليه، وتزاحم العبدريون على اللواءَ لِيرفعوهُ، وتتابعَ على حملِهِ أربعةٌ مِنْ أولادِ طلحة فقتلوا جميعاً دونَهُ، وهم مسافع والجلاس، وقد قتلهما عاصمُ بنُ ثابتٍ؛ وكلاب والحارث، وقد قتلهما قُزمانُ الأنصاري؛ فتناول اللواءَ أرطاةُ بنُ شرحبيلٍ العبدريُّ، فقتلَهُ حمزةُ أيضاً، وقيل بل قتله ابنُ عمِّهِ مصعبُ بنُ عُميرٍ، حاملُ لواءِ المهاجرين، وحملَ لواءَ المشركين بعده أخٌ مشركٌ لمُصعبِ بنِ عُمْيرٍ، وهو أبو يزيد بنُ عُمير فقتلَهُ

قُزمان، ثم صار اللواءُ إلى عبدري عاشرٍ هو القاسطُ بنُ شُريحٍ فلما أجهز عليه قُزمان أيضاً، حملَ اللواءَ صوَابُ، وهو عبدٌ حَبَشِيٌّ لأحدِ الغبدريين، واندفع المسلمون نحوه بسيوفهم، فلمّا قُطِعَتْ يمينُه، أخذا اللواءَ بشماله، وعندما قطعَتْ التزم اللواءَ بجسمِهِ، فرماه قُزمان فأرداه، وبمصرعه سقط لواءُ المشركين على الأرضِ، وقد تمّ القضاء على حملةِ اللواءِ العبدريين، وعلى مولاهم الحبشي صؤاب، بعد أن أبدى من ضروبِ الشجاعةِ والثباتِ ما صار مجالاً للفخرِ عند قُرَيْشٍ، ممّا دفعَ شاعرَ النبيِّ حسّانَ بنَ ثابتٍ بعدَ المعركةِ إلى السخرية بفخرهم:

فخرتم باللواءِ وشرُّ فخرٍ لواءٌ حين رُدَّ إلى صُؤاب

جعلتم فخركم فيه لِعبدٍ لألأمِ مَن مشى فوق التُرَاب

واستعرَتْ نارُ المعركةِ، وحَمِيَتِ الحربُ، واندفعَ

الأبطالُ من أصحاب النبيِّ يحصدون رؤوس المشركين، وهتافُهُم بشعارِهِم «أَمِتْ أَمِتْ» وكان أبو دُجانةَ يكرّ على الأعداءِ، وسيفُ النبيِّ في يدِهِ، لا يلقي أحداً إلا قتلَهُ، حتّى شقَّ صفوفَ المشركين، وعصابةُ الموتِ الحمراءِ على رأسِهِ، وظهر له أحدُ المشركين، فحمل عليه بالسيف، وأراد أَنْ يعلوه به، فَوَلْوَلَ، فإذا هِنْدُ بنتُ عتبةَ، فارتدَّ أبو دُجانةَ عنها، مُكْرِمَاً سيفَ رسولِ اللهِ أَنْ يَضرِبَ به إمرأةً!

وكان حمزةُ بنُ عبدِ المطّلبِ يُقطّعُ بسيفِهِ الرؤوسَ، وهو مُعْلِمٌ عن نفسِهِ بريشةِ نعامةٍ، والمشركون يتجنبون لقاءَهُ، لأنّه كان من أعظمِ أبطالِ العربِ وشجعانِهِم، وكان الموتورون منه في بَدْرٍ كثيرين، في مقدمتهم هندُ بنتُ عتبةَ، وكان قتلَ أباها وأخاها، فكانت حريصةً على الثأرِ منه،

وقد وعدت وحشياً الحبشيَّ، غلامَ جُبيرِ بنِ مُطْعِم، خيراً كثيراً إن هو قتلَ حمزةَ في أحد، كما قال له جبيرٌ مولاه، وكان عمُّهُ قُتِلَ بِبَدْرٍ:

ـ إِنْ قتلْتَ حمزةَ يا وحشي فأنتَ عتيقٌ!

وكان وحشيٌ ماهراً في قذفِ الحربةِ على طريقة الحبشةِ، وقلّما يُخطىء هدفَهُ بها، فلمّا تلاحم الجمعانِ في أحدٍ، راح وحشيٌ يترقّب الفرصةَ السانحةَ، وهو يتتبَّعُ حمزةَ في كَرِّهِ على المشركين، حتّى رآه في عُرْضِ الناس مثلَ الجملِ الأورَقِ (المُغبرّ: لما عليه من غبار النقع) يهدُّ الناسَ بسيفِهِ هدّاً، ولا يثبتُ له أحدٌ، واقتربَ منه فرآه يهوي بسيفِهِ على رأسِ سباعِ بنِ عبدِ العُزّى، فلا يُخطئه؛ وهزَّ حبشيٌ حربتَهُ حتّى إذا أحكَمْ تسديدها، رمى حمزةَ بها، فوقعت في أسفلِ بطنِهِ، ما بين السُرّةِ

والعانةِ، حتّ خرجَتْ من بين رجليهِ، فتهادى على الأرضِ، وأرادَ أَنْ ينهضَ لينقضّ على وَحْشِيٍّ، فما استطاعَ، وسقطَ على الأرضِ بطلٌ من أكبرِ أبطالِ الإسلامِ، لِيُروّيَ سُفوحَ أحدٍ بدمائهِ الطاهرةِ، والمعركةُ في شدةِ عنفوانِها، وقد لاحت بوادرُ النصرِ للمسلمين، وتراجعتْ صفوفُ المشركين مُدْبِرَةً بعدَ سقوطِ لوائِهِم، ولم ينفعْهُم تفوّقُهُم العدديُّ أمامَ بسالةِ المسلمين. وكان أصحابُ محمدٍ يُقاتلون كالليوثِ وهو معهم، يُنادي في الجموع:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ

وبدأ المشركون ينكشفون وينهزمون، وأسرعَ حنظلةُ بنُ أبي عامر الراهب، وقد رأى أبا سفيان على فرسِهِ، فضربَ مؤخرتها بسيفِهِ فتهاوت، وسقطَ أبو سفيانَ على الأرضِ، وفوقَهُ حنظلةُ يُريدُ ذَبْحَهُ،

وأبو سفيانَ يصيحُ بمن حولَهُ مستغيثاً:

ـ يا معشر قُرَيْشٍ، يا معشر قُرَيْشٍ، أدركوني، أنا أبو سفيان بن حرب!

وسمع رجالٌ من قُرَيْشٍ صوتَ استغاثَتِهِ، ولكنّهم لمْ يلتفتوا إليه من الهزيمةِ، وأدركَهُ أحدُهُم وهو شدّاد بنُ شَعوب، فحملَ على حنظلةَ بُرمحِهِ، فقتله، ونجا أبو سفيان، وكان قد ثبتَ، ورجالُه مِنْ حولِهِ يُولّون الأدبارَ، ولو شاء لنجا على ظهر فرسه الطِمِرَّة (الكريمة الطويلة القوائم) الكُميتِ (التي يُخالط لونها الأحمر سواد)، ولمْ يحملْ لِمُنقذِهِ ابنِ شعوب فضلَه عليه:

ولو شئتُ نَجَّتْني كُميتٌ طِمِرَّةٌ

ولم أحمل النَّعْماء لابنِ شَعُوبِ

وعمّت قُرَيْشاً هزيمةٌ مُنكرة، وفرّ رجالُها لا

يلوون على شيء، حتّى أحاطَ المسلمون بنسائِهِم، وهُنّ هاربات مذعورات، نحوَ رجالهِنّ، وكان أبو سفيان خلّف عبيد قُرَيْشٍ على الرحال، فجمعوها وعقلوا (ربطوا) الإبلَ من حولِهَا، فما راعهم إلاّ أنْ يُشاهدوا بعد ساعةٍ من بدايةِ المعركةِ فرارَ قُرَيْشٍ، والمسلمون يُطاردونهم، والنساءُ القرشياتُ يدعون بالويلِ، بَعْدَ الغِناءِ والفَرَحِ وقَرْعِ الطبولِ والدُّفوفِ، وقد وصَفَتِ الصحابيةُ المحاربةُ الجليلةُ أُمُّ عمارةَ منظرَهُنَّ عندَ الفِرارِ فقالتْ: «رأيتُهن ولَّيْنَ منهزماتٍ مُشمِّراتٍ، والرجال أصحاب الخيل نجوا على مُتونِها، وهن يتبعن الرجال على الأقدام، فجعلن يسقطن في الطريق، ولقد رأيتُ هِنْدَ بنتَ عُتبةَ، وكانتْ إمرأةً ثقيلةً، قاعدةً خاشيةً (خائفةً) من الخيلِ، ما بها مشيٌ (ما لها قدرة على المشي) ومعها إمرأةٌ

أخرى ! » . كما وصف فرارَهُنَّ شاهدُ عيانٍ آخر وهو الزبير فقال : « إني لأنْظرُ إلى هِنْدَ وصواحِبهَا منهزماتٍ ، ما دون أَخْذِهِنَّ شيء ٌلِمَنْ أرادَ ذلك » ولكنّ المسلمين عفُّوا عنهنَّ ، وراحوا يطاردون الرجالَ المنهزمين ، وقد حاولَ خالدُ بنُ الوليدِ مع كوكبةٍ من فُرْسانِهِ أنْ يلتف على مَيْسرةِ المسلمين ، حتّى يصلَ إلى السفحِ ، فردَّهُ الرماةُ ، وأمطروه بوابلٍ من سِهامِهِم ، وحاولَ ذلك مراتٍ ، وكتيبةُ الرُّماةِ فوقَ هضبة عينين تصدُّهُ ، حتّى وضحت هزيمةُ المشركين ، وركب المسلمون ظهورَهُم ، واستمروا يطاردونهم ، حتّى دخلوا مُعسكرَهُم ، وأجلوهم عنه ، وراحوا ينتهبونَهُ ، و يغنمون . ما في الرِّحالِ من متاعٍ ومالٍ . ووقعَ الصنمُ الذي حملته قُريشٌ لِتتيامنَ به ، وداسته الأقدامُ ، وانتصرَ التوحيدُ على الوثنيةِ ، ولم تستطعْ

قُرَيْشٌ في ثلاثةِ آلافٍ من فُرْسانِها وجُموعِهَا وقياداتِهَا المجرّبةِ الماكرةِ أَنْ تصمدَ لأقلَّ من سبعمائة راجلٍ، فانهارتِ الكثرةُ الكاثرةُ أمامَ القلةِ القليلةِ، وولّتِ الأدبارَ، وقد أسلمتْ نسوتَها المرافقاتِ للحملة لِما أوشكْنَ أَنْ يقعنَ فيه من الأسرِ والخزي والعار! وبأن لكلِّ ذي عينين أَنّ لِلإيمانِ إذا ملأ صدورَ المحاربين قوةً لا غالب لها، تستطيعُ أَنْ تحققَ المعجزاتِ، وقد كان نصرُ المسلمين في صبيحةِ معركةِ أحدٍ مُعْجزةً حقاً، ولكنّها معجزةٌ لم تتم، والنصرُ الذي جاءتْ به لم يكن حاسماً، والحربُ لم تنتهِ بعدُ، وإنْ خُيِّلَ للمسلمين أنها انتهتْ، فانصرفوا إلى نهب الغنائم، وما أكثرها يومذاك، وشُغلوا بجمعِها عن مُلاحقةِ أعدائِهِم لِلقَضاءِ على كلِّ طاقةٍ لِلمقاومةِ ومعاودةِ القتالِ.

لهذا كان لا بُدَّ للمعركةِ في أحد مِنْ أَنْ تدخلَ في دورها الثاني...

الدور الثاني: الهزيمة

رأى الرماةُ المسلمون المرابطون فوقَ هضبة عينين هزيمةَ المشركين بعد سقوطِ لوائهم على الأرضِ، ومطاردةَ المسلمين لهم، ودخولَهم معسكرهم، ينتهبون ما فيه، فقال بعضُهُم لِبعضٍ، وقد طمِعُوا في الأخذِ من الغنائم بنصيب:

ــ لِمَ تُقيمون ها هنا في غيرِ شيءٍ، وقد هزمَ اللهُ عدوَّكم، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرَهُم! فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع الغانمين! فقال قائلٌ منهم:

ــ ألمْ يقلْ رسولُ اللهِ لكم: أحموا ظهورَنا، ولا

تبرحوا مكانكم، وإنْ رأيتمونا نُقْتَل فلا تنصرونا!

فأجابَ الأولون:

ـــ لمْ يُرِدْ رسولُ اللهِ أَنْ نبقى بعد أَنْ أذلَّ اللهُ المشركين، وهزمَهم. واختلفوا فيما بينهم، فخطبهم أميرُهم عبدُالله بنُ جُبيرٍ ألاّ يُخالفوا أمرَ الرسولِ، وعصاه أكثرُهُم، وانطلقوا وراءَ الغنائمِ، ولمْ يبقَ معه فوقَ الهضبةِ غيرُ نَفَرٍ من الرماةِ، ما يبلغون العَشَرَةَ!

حينذاك انتهزَ خالدُ بنُ الوليدِ الفُرصةَ، وقد رأى الرماةَ المسلمين قد غادروا موضعَهُم، فكرّ بخيلِهِ على مَنْ تبقّى منهم، وتبعَهُ عكرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ بفرسانِهِ أيضاً، فرماهم عبدُ الله بن جُبَيرٍ ومَنْ مَعَهُ بسهامِهِم، ولكنّهم لمْ يلبثوا قليلاً حتّى تمَّ إفناءُ أكثرِهِم،

وإجلاؤهم عن موضِعِهم، وخلا ظهرُ الجيشِ الإسلاميِّ لفرسانِ المشركين، بعد أنْ قاتلَ أميرُ الرماةِ ابنُ جبيرٍ قتالَ الأبطالِ، وهوى مُضرَّجاً بدمائِهِ، فَمَثَّلَ به المشركون أَبْشَعَ تَمْثِيْلٍ، وخرّقوا بطنَهُ برماحِهِم، حتّى سالتْ أمعاؤه، وانسلَّ خالدٌ بفرسانِهِ واستدارَ من وراءِ الجيشِ الإسلاميِّ، وانقضّ على مؤخرتِهِ وهو يصيحُ بشعارِ المشركين «يا لَلعُزّى يا لَهُبَل!» وسمع المشركون صيحةَ خالدٍ وفرسانِهِ، فعرفوا منها أَنَّهُ قد قام بحركةِ التفاف ناجحةٍ على مُؤخرةِ المسلمين، فارتدوا بَعْدَ انهزامِهِم، ليكرُّوا كرّةً ثانيةً، ويقوموا بهجوم مُعَاكِسٍ على المسلمين؛ وتناوَلَتْ عَمْرَةُ بنتُ علقمةَ الحارثيّةُ، إحدى النسوة القرشيات، لواءَ قريشٍ فرفعتْهُ لهم، فاجتمعوا حولَهُ مِنْ جديدٍ؛ كُلُّ هذا والمسلمون لم يفطنوا لذلك، وقد

شغلتهم الغنائم عن ملاحظته، وهبَّتِ الريحُ دَبُوراً (غربيةً) في مواجهةِ المسلمين فآذت عيونهم برمالها، بعد أَنْ كانتِ الريحُ في أولِ النهارِ صَباً (شرقيةً) ملائمةً لهم، ووقع المسلمون بين شقّيْ الرحى: فرسان خالد وعكرمة من خلفهم، وأبو سفيان والمنهزمون العائدون إلى المعركةِ من المشركين، مِنْ أمامِهم، وبذلك تَغيّر الموقفُ تغيُّراً كاملاً لصالح قُريشٍ، وفَقَد المسلمون، وقد بُوغتوا بالعودةِ إلى القِتالِ، تنظيمَ صُفوفِهم، فَتَضَعْضَعَتْ، وعمَّهُمُ الاضطرابُ والإرتباكُ، وأصابهم الدَّهَشُ، فألقوا ما في أيديهم من الغنائمِ، وقد حاصرتْهُم قريشٌ، وكرّتْ عليهم، وهم غافِلونَ آمنون، فوضعت فيهم السيوفَ، وكثرُ القَتْلُ فيهم، وتساقطَ الشهداءُ مضرّجين بدمائهم، وأصبح همّ المسلمين أَنْ ينجو الواحد منهم من براثن

الموت بالفرار، للخلاص من الطوق الذي ضربته قريشٌ حولهم، أو حول السوادِ الأعظمِ منهم، ذلك أنَّ الجيشَ الإسلاميَّ انقسَمَ بَعْدَ أَنْ دارَتِ الدائرةُ عليه، إلى ثلاثِ مجموعاتٍ، كما يرى بعضُ الباحثين:

١ - المجموعة الأولى: وتضُمُّ النبيَّ وأركانَ حربِهِ في مَقَرِّ قيادتِهِ، وهؤلاء لم يُشاركوا في مُطاردةِ قريش إِثْرَ انهزامِها، وكان عددهم أربعةَ عَشَرَ رجلاً، منهم أبو بكر الصديق وطلحةُ بنُ عبيدِاللهِ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ.

٢ - المجموعة الثانية: وتضم قُرابَةَ مائتين من صحابةِ النبيِّ، وهؤلاء اشتركوا في مطاردةِ المنهزمين، ولكنّهم لمْ يتوغلوا وراءَهم كثيراً، ولم يدخلوا معسكرهم، ولم يُشاركوا في نهب الغنائمِ، وقد

بقيتْ هذه المجموعة قريبةً من مَقَرِّ قيادةِ الرسولِ (ص) فلمْ يتمكَنِ المشركون من تطويقها، وبين رجالها أنسُ بنُ النضرِ، وعمر بنُ الخطَّابِ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ.

٣ - المجموعة الثالثة: وتضمُّ السَّوادَ الأعظمَ من الجيشِ الإسلامي، وفيها ما يزيدُ على أربعمائة من الرجال. وهي التي توغَلتْ وراء المنهزمين وطاردتهم وأجلتهم عن مواقعِهم، واحتلَّتْ مقرَّ قيادتهم، واستولتْ على معسكرِهم، وانتهبتْ ما فيه من أسلحةٍ وغنائمَ. وهذه المجموعةُ الكبيرةُ هي التي أحكمَ خالدُ بنُ الوليدِ تطويقَها بحركةِ التفافِهِ المفاجئةِ، وانقضَّ المشركون على رجالها يفتكون بهم فتكاً ذريعاً. فبوغتوا وطاشتْ أحلامُ كثيرٍ منهم، ولاذ بعضُهم بالفرارِ، لا

يلوون على شيء، وهم فئةٌ قليلةٌ من بينها عثمانُ بنُ عفّانَ، حتى بلغوا في هربهم أطرافَ المدينةِ، فتلقتهم نساؤها المسلمات بالصياحِ والتعنيفِ، وحَثَوْنَ الترابَ في وجوههم؛ وتفرّقَ المسلمون في كلِّ وَجْهٍ، وقد تركوا ما انتهبوا، وخلّوا من أسَرُوا، وراحوا يتلمّسون الشعاب في أحد مُصعدين فيها، للنجاةِ من مطاردةِ المشركين لهم والتضييقِ عليهم.

وتسلّلَ عمروُ بنُ قميئةَ إلى حاملِ لواءِ المسلمين، مصعبِ بنِ عُميرٍ العبدريِّ فقتله، فأسرعَ أخوه أبو الرُّوم بنُ عُميرٍ إلى حَمْلِهِ، وقد ظلَّ في يدِهِ مرفوعاً، حتّى رجعَ به إلى المدينةِ؛ واختلطتْ صفوفُ المسلمين، وصار بعضُهم يضربُ بعضاً من العجلة والدَّهَشِ، وهم لا يشعرون، وتدافَعَ المشركون

كالسّيلِ، وفيهم عددٌ من الحاقدين على محمدٍ، يريدون أَنْ يصلوا إليه، ليشاركوا في قتلِهِ، وقد قاتلَ النبيُّ (ص) في أحد قتالاً شديداً، فرمى بالنبالِ، حتى فرغتْ جعبتُه منها، وانكسرتْ سِيَةُ قوسِهِ (والسِّيَةُ: ما عُطف من طرفي القوس) وانقطعَ وترُهُ، ولمْ يصمد مع النبيِّ غيرُ نفرٍ من أصحابِهِ من المهاجرين والأنصارِ، استماتوا في الدفاعِ عنه، والمشركون ينقضُّون عليهم من كلِّ جانبٍ، وثبتَ النبيُّ في موضعه، وهو يرمى عن نفسِهِ بالحجارةِ، بعد أن فنيت نبالُه وأصبحتْ قوسه شظايا (قطعاً)، وتكاثر المشركون عليه، يمطرونه بسهامِهِم، وأصحابه من حوله، وقد بايعه على الموت ثمانيةٌ منهم وهم: عليٌّ والزبيرُ وطلحةُ من المهاجرين، وأبو دُجَانَةَ، والحارثُ بنُ الصمةَ، والحبابُ بنُ المنذرِ، وعاصم بنُ ثابتٍ، وسهلُ بنُ حنيف، من الأنصار، وكان

أبو دجانةَ يُغطّي بجسمِهِ النبيَّ، والأحجارُ والنبالُ تصيبُ منه، حتّى كثرتْ فيه الجراحةُ، وأصابَتِ النبيَّ بعضُ الأحجار، وقد رمى بها عُتبةُ بنُ أبي وقّاصٍ، فوقع النبيُّ لِشِقّه، فأصيبت رَبَاعِيَتُه (إحدى أسنانه في مقدم الفم) وشُجَّ في وجنتيه، وجُرحت شفته السُفلى، ودخلتْ حَلقتان من حَلَقِ المغفرِ (زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة) في وجنتيه، وسال الدّمُ على وجهِهِ، ووقع في حُفرةٍ من الحفرِ التي كان أبو عامر الراهب قد حَفَرَها مع لفيفه من عبيدِ قُريشٍ، لِيكيدَ بها المسلمين، فأسرع عليُّ بنُ أبي طالبٍ فأخذَ بيدِ النبيِّ، وقد جُحشتْ ركبتاه (خُدِشتا)، وحمله طلحةُ مِنْ ورائهِ، حتّى استوى قائماً، والدمُ قد أخْضَل لحيتَه، وكان أربعةٌ من قريشٍ قد تعاهدوا وتعاقدوا على قَتْلِ النبيِّ، وأعلنوا ما عزموا عليه، وهم عبدُالله بنُ شهابٍ، وعُتبةُ بنُ

أبي وقّاصٍ ــ أخو سعد ــ وعمروُ بنُ قميئةَ، وأبيُّ بنُ خلفٍ، و يُقال إنّ أولَهُمْ هو الذي شجَّ رسول الله (ص) في جبهته، وثانيهم هو الذي أصابَ رباعيتُه وأدمى شفتيه، وثالثهم هو الذي أهوى بسيفِهِ على الخوذةِ التي كان النبيُّ يعتمرُ بها، فحطّمَهَا، وجعلَ حلقاتِ المغفرِ تغيبُ في وجنتيه، ووقع النبيُّ على ركبتيهِ في تلك الحفرةِ، وكان عليه درعان، ولم تصنعْ ضربةُ ابنِ قُميئةَ على عاتقِهِ شيئاً، ولكنّ النبيَّ مَكَثَ بعد أحد أكثر من شهر وهو يُحس لضربتِهِ وَهَناً (ضعفاً). أما رابعُهم وهو أبيُّ ابنُ خَلَفٍ، فقد أقبل بفرسِهِ، لِيلحقَ بالنبيِّ، وقد تجمَّعَ مِنْ حولِهِ الصفوةُ من أصحابِهِ، وبينهم، أبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ وطلحةُ والزبيرُ والحارثُ بنُ الصمة، وتهيأوا لِلنّهوضِ نحوَ الشِّعبِ (الطريق

الجبلي)، فأدركهم أبيُّ وهو يصيح:

ـ أي محمد! لا نجوتُ إنْ نجوتَ!

فأرادَ بعضُ أصحابِ النبيِّ أنْ يتصدى له، ولكنّ محمداً تناولَ الحربةَ من الحارثِ بنِ الصمة، وانتفضَ بها، وسدَّدَها فأحسنَ تسديدَها، وطعنَ بها أبياً في عُنقِهِ، فوقعَ عن فرسِهِ، وتكسرت بعضُ أضلاعِهِ، وأسرعَ المشركون نحوَه يحتملونَهُ، ومات من الطعنةِ وهم قافلون به إلى مكّةَ!

ورجع ابنُ قميئةَ إلى المشركين فأخبرهم أنّه قَتَلَ محمداً، فصاح صائحٌ في الناسِ:

ـ يا معشرَ قُريشٍ! قُتل محمد، إن محمداً قد قُتل!

وقال أبو سفيان وقد سمع الصيحةَ:

ـ يا معشرَ قريشٍ، أيكم قتل محمداً؟

فقال ابنُ قميئة:

ـ أنا قتلتُه!

فقال له أبو سفيان:

ـ نُسَوِّرُك (نُلْبِسُكَ السِّوارَ تكريماً) كما تفعلُ الأعاجِمُ بأبطالها! وراح أبو سفيان يطوفُ في أرض المعركة، يتفقّدُ الجثثَ، باحثاً عن جُثةِ محمدٍ فيها، فلمّا لمْ يجدْ لها أثراً، ولقِيَ خالدَ بنَ الوليدِ، سأله:

ـ هل تبيَّن عندك قتلُ محمد؟

ـ رأيتُه قبلَ قليلٍ في نفرٍ من أصحابِهِ، مُصعدين في الجبلِ!

ـ هذا حقٌّ، وقد كذبَ ابنُ قميئة، زعم أنّه قتله!

غيرَ أنّ إشاعةَ قتلِ النبيِّ كان لها أثرٌ مختلفٌ في كلٍّ من الجيشين المتقابلين: فأما قُريشٌ فقد فرِحَتْ

بما اعتقدتْ من موتِهِ، وظنّتْ أنها قد بلغتْ ما تريدُ من الثأرِ لقتلاها في بَدْرٍ، والقضاءِ على صاحبِ الدعوةِ الجديدةِ التي مزّقتْ وحدتها، وهددّتها بفقدانِ مكانتها الدينيةِ والإقتصاديةِ في القبائلِ العربيةِ، ورأتْ أنّ النصرَ قد تحققَ لها، فانشغلتْ به عن ملاحقةِ فلولِ المسلمين، وهم يلتمسون النجاةَ لأنفسِهم في شعابِ الجبلِ، مُصْعِدينَ فيه، ولهذا لم يشأ النبيُّ أَنْ يُكذِّبَ إشاعةَ موتِهِ، حتّى لا تتكاثرَ قريشٌ على المدافعين عنه، وهم قلةٌ لا يتجاوز عددُهم الثلاثين، في رواية المكثرين!، وكتائبُ المشركين تأخذهم من كل جانبٍ.

وأما المسلمون فقد عمَّ الذُعرُ والخوفُ أكثرَهُم، ووقفَ بعضُهم حائرين لا يدرون ما يفعلون، وتوقفَ آخرون على القِتالِ، وألقوا بأسلحتِهم،

وتفرّقوا وقد زالتْ حماستُهُم لِلقِتالِ، ومرّ أنسُ بنُ النضرِ بنفرٍ مِنْ هؤلاءِ المسلمين، وهم قُعودٌ عن القِتالِ، فقال لهم:

ـــ ما يُقعدكم عن القتال؟

ـــ قتلَ رسولُ اللهِ!

ـــ ما تصنعون بالحياةِ بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه.

وألقى بنفسِهِ أمامَ كتائبِ المشركين، يُجالدهم بسيفِهِ، حتى قُتلَ، وَوُجِدَ به سبعون ضربةً؛ وقال بطلٌ آخر من أصحابِ محمدٍ لهؤلاء القاعدين:

ـــ إن كان محمدٌ قد قُتِلَ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ، قوموا فقاتلوا عن دينكم! وبلغ اليأس بِنَفَرٍ من المسلمين، وقد انهارتْ معنوياتُهُم، أَنْ يُفكروا بالاستسلام، وأخذِ الأمانِ من أبي سفيان، وهم

يرون خيلَ قريشٍ تفعلُ بالمسلمين الأفاعيلَ، و يرون فرسانَهَا، يكرّون دونَ هوادةٍ، وفيهم خالدُ بنُ الوليدِ، وعمرُوبنُ العَاصِ، وعكرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ، وضرارُ بنُ الخطّابِ، وغيرُهم من أبطالِ العربِ، وهكذا بلغتْ هزيمةُ المسلمين في أحُدٍ حَدّاً جَعَلَ مِنَ المعركةِ في دورها الثاني محنةً كبيرةً، و بلاءً عظيماً، واختباراً صعباً للمسلمين، فضاعَ منهم النصرُ، وحلّتْ بهم الهزيمةُ، جزاءً وفاقاً لِعصيانِ الرماةِ أوامرَ النبيِّ، وتخليهم عن مركزهم، وإسهامهم مع الطامعين في عَرَضِ الدنيا من إخوانهم، بانتهابِ الغنائمِ، قَبْلَ أَنْ يتمَّ للمسلمين النصرُ الحاسمُ على أعدائِهم.

ولكنّ المسلمين لمْ يلبثوا أَنْ عرفوا أنّ النبيَّ لمْ يُقتلْ، فقد اقترب كعبُ بنُ مالكٍ من أصحابِ

النبيِّ المحيطين به، فرآه وعرفه عندما شهد عينيه تومضان تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته:

ـــ يا معشرَ المسلمين، أبشروا! هذا رسولُ الله!

وأشارا النبيُّ إليه لِيَسكُتَ، وأعطى أوامِرَهُ لمن حولَهُ بالبدءِ بالإنْسِحابِ المنظَّمِ من ساحةِ القتالِ، وبدأ الدورُ الثالثُ من معركةِ أُحُدٍ.

الدور الثالث: الإنسحاب المُنَظَّم

كان لصيحةِ كعبِ بنِ مالكٍ أثرُها في المسلمين، فبدأوا يتجمّعون حَوْلَ قائدِهِم، فرحين بنجاتِهِ، وقد عاودتهم حماسَتُهُم للقتالِ، فصمدوا دونَهُ، وهو يصعدُ في الجبلِ، مع الصفوةِ من أصحابِهِ، وراحوا يقاتلون عنه المشركين باستماتةٍ لا يُقهرُ أصحابُها أبداً، لِتغطيةِ الإنسحابِ المنظّمِ، مُتسلّقين أُحُداً، وشهدتْ سفوحُ الجبلِ إثْرَ ذلك بطولاتٍ خارقةً في الدفاعِ عن النبيِّ، لحمايةِ إنسحابِهِ نحوَ الشِّعْبِ لِلتحصّنِ بِهِ، وقد كان أصحابُهُ يُلقون بأنفسِهِم للتعرض لِلنبالِ مِنْ دونِهِ، وكُلُّهُم يوَدُّ

إنْ يفتديَهُ بروحِهِ، وكم من شهيدٍ منهم سقط مُضرَّجاً بدمِهِ، وهو يُترِّسُ بجسدِهِ (يقف كالترس) عن رسولِ اللهِ، من أمثالِ شماسِ بنِ عثمانَ المخزوميِّ ومصعبِ بنِ عُميرٍ العبدريِّ، وعُمارة بنِ زيادٍ الأنصاريِّ وعددٍ من فتيانِ الأنصارِ، وقد سقطَ عُمارةُ مُثخناً بجراحه أمامَ النبيِّ، فوسّده قدمَه حتّى ماتَ، وفي جسدِهِ اربعةَ عَشَرَ جُرحاً، وتجمّعَ الرماةُ من الصحابَةِ لِيصدوا المهاجمين مِنَ المشركين، وقد كان لهم أبلغُ الأثرِ في حمايةِ النبيِّ وتغطيةِ الإنسحابِ، وكان في مقدمةِ هؤلاءِ الرماةِ أبو طلحةَ الأنصاريُّ، وكان من المجيدين في الرماية، وكان جهيرَ الصوتِ، وكان صوتُهُ في الجيش خيراً من اربعين رجلاً، بشهادة النبيِّ له، وقد نثر كِنانَتَه ـ جُعبةَ السهام ـ وفيها خمسون سهماً. بين يدي

النبيِّ، حتّى أفناها، وقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وهو يصيح:

ــ نحري دونَ نَحْركَ، جعلني اللهُ فداك يا رسولَ اللهِ!

ومن الرماةِ الذين أبلوا خيرَ البلاءِ، وثبتوا حولَ النبيِّ، يرمون عنه، وهم يُتَرَّسُوْنَ بأجسادِهِم، سعدُ ابنُ أبي وَقّاصٍ، وكان النبيُّ يحرّضُهُ على الرمي ويقول له:

ــ إرمِ سعدُ، فداكَ أبي وأمي، إرمِ يا سعدُ.

كما كان سهيلُ بنُ حنيفٍ ينضحُ (يرمي) بالنَّبلِ عن رسولِ اللهِ في أشدِّ الساعاتِ خطراً في أحُد، والنبيُّ يُوصى مَنْ حولَه، بتزويدِهِ بالنبالِ بقوله:

ــ نَبِّلُوا سهلاً، فإنّه سهلٌ!

وقاتل طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ دونَ النبيِّ قتالاً شديداً، وكان في أحُد أعظمَ الناسِ غَناءً عن رسولِ اللهِ (ص)، ورأى أحدَ المشركين يرمي النبيَّ بسهمٍ، فَمَدّ طلحةُ كفّه يحمي وجهَهُ، فأصاب السهمُ خنصرَه، فأضحى مشلولاً منذ ذلك اليوم، وأقبل أحدُ المشركين، والمسلمون يتراجعون، وهو يصيح:

ــ دُلُّوني على محمدٍ!

فتصدى له طلحةُ بسيفِهِ، وضربَ مؤخرةَ فرسِهِ، فتهاوت ورمتْ به إلى الأرضِ، فطعن طلحةُ حدقتَه، وقتله، وأصابتْ طلحةَ ضربةٌ في رأسِهِ، فسال دمُه حتى غُشيَ عليه، فنَضَح أبو بكرٍ الماءَ في وجهِهِ، حتّى أفاقَ، فسأل عن النبي، فلمّا علم أنّه بخيرٍ قال:

ـــ الحمدُلله، كلُّ مصيبةٍ بعدَهُ جَلَلٌ! (هيّنة قليلة).

وكان عليُ بنُ أبي طالبٍ، وأبو دُجانةَ مالكُ بنُ خَرَشَةَ، ممّن قاتلوا فأحسنوا القتالَ، وكان عليٌ يقفُ في وجْهِ فِرقةٍ بكاملِهَا، دفاعاً عن النبيِّ، ولم يفارقْهُ لحظةً منذ توالتْ هجماتُ المشركين عليه، وانفردَ عليٌ بِفِرقةٍ فيها عكرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ، فدخل وسطَهم بالسيفِ، يضربهم به، وقد اشتملوا عليه، حتّى أفضى إلى آخرهم، ثم كرَّ فيهم ثانياً، حتى رَجَعَ إلى جوارِ النبيِّ، أما أبو دجانةَ فكان سيفُ النبيِّ في يدِهِ، وقد رأى النبالَ تَنْهَمِرُ على النبيِّ، فانحنى عليه بجسدِهِ، وصارَ النبلُ يقعُ في ظهرِهِ، حتّى تكاثرتْ جراحُهُ، ثم شهدَ أحدَ الفرسانِ المشركين، يكرُّ على النبيِّ، وهو مقنّعٌ في الحديد، و يقول:

ــ أنا عبدُالله بنُ حميدٍ بنِ زهيرٍ، دُلُّوني على محمدٍ، فوالله لأقتلنَّه أو لأموتَنَّ دونه!

فهَبَّ أبو دجانةَ إلى لقائِهِ، وقال له.

ــ هلُمَّ إلى مَنْ يَقِي نفسَ محمدٍ بنفسِهِ!

وضربَ فرسَهُ فعَرْقَبها (قطع رجليها) وسقط ابنُ زهيرٍ على الأرضِ، وانقضّ أبو دجانةَ عليه، فعلاهُ بالسيفِ حتّى قتلَهُ.

هكذا كان صحابَةُ النبيِّ مِنْ حولِهِ، يتصدون لفرسانِ قريشٍ، وهم يلاحقون النبيَّ، وهو متوجِّه إلى الشعْبِ، لِيقتلوه، فيلقون مصارعَهُم من دونِ الوصولِ إليهِ، وقد ثبتَ أصحابُ النبيِّ كالسُّورِ من حولِهِ..

وأقبلَ عثمانُ بنُ عبدِالله المخزوميُّ على فَرَسٍ أبلق، وعليه لأمَةٌ كاملةٌ (كلُّ سلاحِ المقاتلِ)،

يُريد رسولَ اللهِ، وهومتوجِّهٌ إلى الشعْبِ، وهو يصيحُ صيحةَ الحِقدِ والثأر:

ـ لا نجوتُ يا محمدُ إنْ نجوتَ!

وكرَّ (هجم) على النبيِّ، فعثر فرسُهُ في حفرةٍ من تلك الحفرِ التي أرادَ أبو عامر الراهب أَنْ يكيدَ بها للمسلمين، فوقعَ الفارسُ على الأرضِ، وانفلتَ الفرسُ فذهبَ على وجهه هارباً، ووثبَ الحارثُ بنُ الصمة بسيفِهِ نحوَهُ، فتضاربا حيناً، ثم ضربَهُ الحارثُ على رجله، فبرك، وانقض فأجهز عليه، والنبيُّ يقول:

ـ الحمدُللهِ الذي أحانَهُ (أهلكه).

ومن الصعب أنْ نُحصيَ مشاهدَ البطولاتِ الإسلاميةِ، التي غطّت عمليةَ الإنسحابِ، فَلْنختمِ

سلسلةَ المشاهدِ التي قدّمناها، بحلقةٍ أخيرةٍ، نَشْهدُ فيها واحدةً من بَطلاتِ الإسلامِ المجاهداتِ الصادقاتِ، وبلاءَها بين يدي النبيِّ في أُحُدٍ، دفاعاً عنه: فقد خرجتْ أمُّ عمارة الأنصاريةُ مع الجيشِ، وفيه أبنُها وزوجُها، وكانتْ أولَ النهارِ تطوفُ على المجاهدين والجرحى منهم بسِقائها (بقِربتها) تسقي العطاش منهم. فلمّا انهزم المسلمون بعدَ النصرِ، ألقت سِقاءَها، واستلّتْ سيفاً، وتنكّبت قوساً، واندفعتْ تُباشرِ القتالَ، وهي حاجزةٌ (رافعةٌ) ثوبَها على وسطها، وثبتتْ حولَ النبيِّ، تُدافعُ عنه بالسيفِ حيناً، وترمي بالقوسِ حيناً، وقد شهدَ النبيُّ عليه السلامُ أنه ما التفتَ يميناً ولا شِمالاً إلاّ ورأى أمَّ عمارة تُقاتل دونَه؛ ولم يكنْ معها تُرسٌ، فصاحَ النبيُّ ببعض الرجال المنهزمين:

ـ يا صاحبَ التُرسِ، ألقِ ترسَكَ إلى مَنْ يُقاتل!

فألقى تُرسه، فتناولته أمُّ عمارة، وجعلت تُتَرِّسُ به عن النبيِّ، ولما أقبلَ ابنُ قمئة يريدُ الوصولَ إليه، رمتْ أمُّ عمارة بنفسِهَا أمامَهُ، فضربَها على عاتِقها ضربةً صار لها فيما بَعْدُ غَوْرٌ أجوفُ، وضربتْهُ هي ضربات، وظلتْ تقاتلُ بَعْدَ ذلك مِنْ حولِ النبيِّ، حتى أتَمَّ النبيُّ إنسحابَهُ إلى الشعْبِ، وقد جُرِحَتْ إثنى عَشَرَ جرحاً، بين طعنةٍ برمحٍ أو ضربةٍ بسيفٍ!

عندما انتهى النبيُّ إلى فمِ الشِّعْبِ ومعه الصفوةُ من أصحابِهِ من أمثالِ أبي بكرٍ وعمرَ وابنِ عوفٍ وعليٍّ وسعدِ بنِ أبي وقّاصٍ وطلحةَ والزبيرِ وأبي عبيدةَ بنِ الجراحِ والحبابِ بنِ المنذرِ وأبي دجانةَ وعاصمِ بنِ ثابتٍ وسهلِ بنِ حنيفٍ وأسيدِ بنِ حضيرٍ

وسعدِ بنِ معاذٍ ومحمدِ بنِ مسلمةَ وسعدِ بنِ عبادةَ، وغيرِهِم، أسرَع هؤلاء الأصحابُ لمعالجةِ جراحِ النبيِّ، وخرج عليُّ إلى ماءٍ قريبٍ بأحد، يُدعى المهراس، فملأ درقتَه (ترس من جلد) من مائِهِ، ورجع إلى النبيِّ، لِيشربَ منه، فكرهَه ولم يشربْ منه، وغسلَ به الدَّمَ عن وجهِهِ، وكان أبو عبيدةَ قد نزعَ حلقتي المغفرِ الغائصتين في وجنتيه، فسال الدَّمُ منهما، وكانتْ فاطمةُ بنتُ النبيِّ قد جاءتْ من المدينةِ، في نسوةٍ من المسلمات، أربعَ عشْرةَ إمرأةً، يحملن الطعامَ والشرابَ على ظهورهن، و يسقين الجرحى، و يُداوين جراحهم، فلمّا عطشَ النبيُّ ولم يُسِغْ (لم يقبل) ماءَ المهراس، خرجَ محمدُ بنُ مسلمةَ إلى النساءِ يلتمسُ عندهنَّ الماءَ للنبيِّ، فلم يجدْهُ، فذهب إلى قناة ورجع منها بماءٍ عَذْبٍ، بلَّ به رسولَ

اللهِ فمَهُ، وشَرِبَ منه حتّى ارتوى، والدَّمُ لا ينقطعُ من جراحِ وجهِهِ، وفاطمةُ تغسِلُهُ، وعليٌّ يصبُّ الماءَ على يَدِها، حتّى أخذتْ قطعةَ حصيرٍ فأحرقَتْهَ فصار رماداً، فألصقَتْهُ بالجراحِ، فاستمسكَ الدّمُ، وكان النبيُّ لا يفتأ يسألُ عن بعضِ أصحابِهِ: كعمِّهِ حمزةَ، وسعدِ بنِ الربيعِ، وغيرهما، وقد صلّى الظهرَ بأصحابِهِ جالساً، وراح بعضُ الصحابةِ يشيرون إلى المسلمين المنهزمين في هضاب أحد، فأقبلوا على الشعْبِ، يتجمّعون فيه، وفرحوا بنجاةِ النبيِّ، ولمْ يَقِفِ القتالُ بعدُ، فقد كانتْ هناك محاولةٌ أخيرةٌ لِلهجوم قامتْ بها كتيبةٌ من فرسانِ قريشٍ، يقودُها خالدُ بنُ الوليدِ، وأرادَ أَنْ يعلوَ في الجبلِ، لِيطوِّقَ الشِّعْبَ، وينقضَّ على مَن فيه، فقال النبيُّ لأصحابِهِ، وقد هبوا للقتالِ من جديدٍ:

ــ لا ينبغي لأحدٍ أَنْ يعلونا، فشُدوا عليهم.

فقاتلهم عمرُ بنُ الخطاب وجماعةٌ من الصّحابةِ حتى أهبطوهم، وأخفَقَتْ محاولةُ قريشٍ الأخيرةِ للهجوم، وتحصن المسلمون في الشعْبِ، و يئسَ المشركون مِنْ أَنْ ينالوا منهم، وقد شهدوا من استماتَتِهم آياتٍ تدلُ على إصرارٍ على الصمود، وكان السَّوادُ الأكبرُ من جيشِ قريشٍ قد تراخوا عن القتالِ، وشُغِلُوا عنه بتفقد القتلى منه ودفنهم، واستعادةِ ما كان المسلمون انتهبوه ثم رموا به، من معسكر المشركين، وانصرفَتِ النسوةُ القُرشياتُ إلى التمثيل (التشويه) بجثثِ الشهداءِ، وكانتْ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ قد خلعتْ على وحشيٍّ عندما بشّرها بمصرع حمزةَ، كلَّ ما عليها من أساورَ وقلائدَ، وهرعتْ إلى جثتِهِ، فبقَرَتْ عن بطنِهِ، وأخرجتْ كبدَهُ، فلاكتها

(مضغتها) فلم تستطعْ أنْ تبتلعها فلفظتها (طرحتها)، وراحتْ مع غيرِها من النساءِ، يجدّعن (يقطعن) الآذان والأنوف، وتنظمها قلائد وخلاخل وأقراطاً، وصعدتْ صخرةً عاليةً، وصرخت بأعلى صوتها، شامتةً ترتجز:

نحن جزيناكم بيوم بدرِ
شفيتُ نفسي وقضيتُ نَذْري
شفيتَ وحشيُّ غليلَ صدري

وقرّر أبو سفيان إنهاءَ القتالِ، وقبلَ انصرافِهِ بالجيشِ، أقبل على فرسه حتّى أشرف على المسلمين في عُرْض الجبل، فنادى بأعلى صوته:

ـ أعْلِ هُبَل (اظهر دينَك يا هُبَل) أين محمدٌ؟ أين ابنُ قحافةَ (أبو بكر)؟ أين ابنُ الخطّاب؟ يومٌ

بيوم بدر، أَلا إِنَّ الأيامَ دُوَلٌ (متبدّلة)، وإِنَّ الحربَ سِجالٌ (نصرٌ وهزيمة) وحنظلةٌ (ابن أبي عامر الراهب) بحنظلة (ابن أبي سفيان قتيل بدر).

فاستأذن عمرُ النبيَّ لِيُجيبَ أبا سفيان، فأذِنَ له، فصاحَ.

ــ اللهُ أعلى وأجل، هذا رسولُ اللهِ وهذا أبو بكرٍ وأنا عُمَرُ، وليس سواءً بدرٌ وأحد، فقتلاكم في النار، وقتلانا في الجنة!

ونادى أبو سفيان ابنَ الخطّابِ ثانية، وسأله:

ــ استحلفُكَ بدينِكَ: هلْ قتلْنا محمداً؟

ــ اللهمَّ لا، وإنّه لَيَسْمعُ كلامَكَ الآنَ!

ــ أنتَ عندي أَصْدَقُ مِنِ ابنِ قميئةَ!

ثم نادى أبو سفيان، ورفعَ صوتَهُ، مُتبرّئاً من

تبعةِ التمثيلِ بجثثِ المسلمين، دونَ أَنْ تُزايله حميّةُ الجاهليّة:

ــ إنكم واجدون في قتلاكم مَثْلاً، أَلاَ إِنْ ذلك لمْ يكنْ عن رأيِ سَرَاتِنا (أشرافنا)، ولكنّه إِذْ وَقَع فلمْ نكرهه!

ثم توعّد المسلمين بحربٍ قادمة بعد عام:

ــ أَلاَ إِنْ موعدكم في بَدْرٍ على رأسِ الحولِ!

فأجابه عُمر، بما أمره النبي، وقال:

ــ نعم.

وغادر أبو سفيانَ بجيشٍ مكّةَ سُفوحَ أحدٍ. بعد أَنْ خلّفتْ قريشٌ في المعركةِ ما يزيد على عشرين قتيلاً، وَاسْتُشْهِدَ من المسلمين أربعةٌ وسبعونَ رجلاً، مَثَّلَ النسوةُ القرشياتُ بجثثِهم أبشعَ تمثيلٍ، وعبثن بها بوحشيةٍ وهمجيةٍ، انتقاماً لرجالهنَّ وذوي قرباهن من قتلى بَدْرٍ.

أما النبيُّ فكان في مُعتصمه بالشِّعْبِ، وقد تقاطرت عليه جموع المسلمين من هضاب أحد، وهو يرقُبُ رحيلَ جيشِ المشركين، خشيةَ أن يتجّه بهم أبو سفيان نحوَ المدينةِ، لِلإغارةِ عليها، وكان يُعيدُ تنظيمَ فلولِ جيشِهِ، لِيُسرعَ برجالِهِ إلى إنقاذِ المدينةِ المهدَّدة، ولكنّ قريشاً ظنّتْ أنها قد ألحقتْ بالمسلمين هزيمةً ساحقةً ماحقةً، فآثرتْ أَنْ تعودَ بجيشِها وحلفائِهَا وأحابيشها إلى مكَّةَ، مُكْتَفِيَةً بما أحرزتْ من نَصْرٍ، وما حققتْهُ حملتُها من ثأرٍ وانتقامٍ.

المطاردة ختمت المعركة بنصر سياسي

لمْ يطلْ مُقام المسلمين في أحدٍ بَعْدَ رحيلِ المشركين، وقد أقبلَ النبيُّ وأصحابُهُ على ساحةِ المعركةِ، يتفقّدون جثثَ الشهداءِ، ووقفَ محمدٌ على جُثّةِ عمّهِ حمزةَ، فأحزَنَهُ ما رأى من تمثيلٍ وتشويهٍ وتقطيعٍ، ودمعتْ عيناه من الحزنِ، والمسلمون مِنْ حولِهِ صامتون منهكون من الإجهادِ والأسى والجراحِ، والدموعُ تجول في أعينهم ندماً وأسفاً وحسرةً، على الهزيمةِ بعدَ النصرِ، والفرارِ بعدَ الصمودِ، والهوان بعد العزّة، والعصيانِ بعدَ الطاعةِ، وأمرهم النبيُّ أنْ يُسرعوا بِدَفْنِ الشهداءِ حيثُ لقوا مصارعَهُم، فلمّا

فرغوا مِنْ دفنِهم، ركب النبيُّ فرسَهُ، والمسلمون حولَهُ عامّتُهم جرحى، وقفلوا عائدينَ إلى المدينةِ الحزينةِ، فدخلوها مَعَ زوالِ الشمسِ من مساءِ يوم المعركةِ، وهو يومُ السبت في السابعِ من شوال للسنةِ الثالثةِ للهجرةِ.

وباتتِ المدينةُ ليلتها يقظى وكأنَّها في حالةِ طوارىء: فرجالُهَا المسلمون من الأنصارِ يحرسون مداخلَهَا، خوفاً من هجومٍ ليليٍّ مُباغتٍ، يقومُ به أبو سفيانَ بجيشِ مكَّةَ، مدفوعاً بزهو الإنتصارِ في أُحُدٍ، في عودةٍ خاطفةٍ، وباتَ على بابِ بيتِ النبيِّ في المسجدِ عددٌ من وجوهِ الأوسِ والخزرجِ، لحراستِهِ، طَوالَ الليلِ، خوفاً من قريشٍ أَنْ تكرَّ (ترجع لمهاجمة المدينة)، وكان النواحُ على القتلى في أحياءٍ كثيرةٍ من المدينةِ الحزينةِ، وكان بنو عبدِ الأشهل وحدهم،

وهم قومُ سعدِ بنِ معاذٍ الأنصاريِّ، قد واروا إثنى عشَرَ شهيداً، وباتوا يداوون جراحَ ثلاثين رجلاً منهم، وأوى النبيُّ إلى بيتِهِ بعدَ صلاةِ العِشاءِ، وجعلَ يفكرُ في الموقفِ الحرجِ الذي صار إليه المسلمون:

لقد تجلَّدَ النبيُّ أمامَ المحنةِ، واستطاعَ أنْ ينقذَ بانسحابِهِ تسعين في المائة من جيشِهِ، وأَنْ يعودَ بأصحابِهِ إلى المدينةِ، متماسكاً على الرغم من الإجهادِ والجراحِ، مُتغلباً على الأخطار التي أحاقتْ بِهِ، ولم تستطعْ قريشٌ أَنْ تُلْحِقَ به هزيمةً حاسمةً، ولكنّ الهزيمةَ في أُحُدٍ مع ذلك تهدِّدُ مكانةَ المسلمين وسلطانَهُمْ في المدينةِ وخارجها، في المدينةِ جموعٌ من المنافقين المتظاهرين بالإسلامِ، أظهرتِ الهزيمةُ ما في نفوسِهم من أضغانٍ مخبوءةٍ، فلمْ يَكْتُمُوا فرحتَهُمْ بما

أصاب المسلمين، وفي المدينةِ جماعاتٌ من اليهودِ، أطلقتِ الهزيمةُ ألسنتَهُمْ بالسخرِ والشماتَةِ، فقالوا:

ــ ما محمدٌ إلا طالبُ مُلكٍ، وليس بنبيٍّ، فما أصيب نبيٌّ هكذا قطُّ، أصيبَ في بدنِهِ، وأصيبَ في أصحابِهِ..

وفي خارجِ المدينةِ تهدِّدُ هزيمةُ أحدٍ هيبةَ المسلمين ونفوذَهُمَ عند سائرِ قبائلِ العربِ، التي أَرْعَبَهَا النصرُ في بَدْرٍ، فاستكانتْ لِسطوةِ المسلمين، ولكنّ الهزيمةَ في أُحُدٍ تُشجّعها على مهاجمةِ المدينةِ والغارةِ عليها..

لا بُدَّ إذاً من ضربةٍ جريئةٍ يستردُّ بها المسلمون قوتهم المعنويَّةَ، وتخفِّفُ من وقعِ هزيمةِ أُحُدٍ، وتُعيدُ إلى محمدٍ وأصحابِهِ سلطانَهُمْ في المدينةِ قوياً مرهوباً. لا بدَّ من ضربةٍ جريئةٍ وسريعةٍ، تردُّ للمسلمين هيبتَهُمْ، وتُخرسُ المنافقين واليهودَ، وتُرهبُ القبائلَ

الأخرى، قَبْلَ أَنْ تجرّىءَ الهزيمةُ أعداء المسلمين على مناوأتهم والإستخفافِ بهم.

وجاء صباحُ اليوم التالي لمعركةِ أحدٍ، وهو يومُ الأحد في الثامنِ من شوال، لِيقدِّمَ النبيُّ وأصحابُهُ الدليلَ العمليَّ على قوةِ المسلمين: وهو قيامُ الجيشِ الإسلاميِّ العائدِ من أحُدٍ بمطاردةِ جيشِ أبي سفيان، وقد هبَّ المسلمون منذ الفجرِ على صوتِ بلالٍ وهو يُنادي:

ـ يا معشرَ المسلمين، إنَّ رسولَ اللهِ (ص) يأمركم بطلبِ عدوِّكم، ولا يَخرُجْ معنا إلاّ مَنْ شهدَ القتالَ بالأمسِ!

فتبادرَ الناسُ، وقد حملوا أسلحتَهُمْ، ولحِقُوا برسولِ اللهِ، عندَ بابِ مسجدِهِ، وهو على فرسِهِ بسلاحِهِ،

وقد عقدَ اللواءَ لأبي بكرٍ ـ وقيل لعليٍّ ـ واستأذنه رجالٌ لم يشهدوا أحداً فلمْ يأذنْ لهم، واستولتِ الدهشةُ على المنافقين واليهودِ، وأصابَهُمُ الذهولُ، عندما رأوا الجيشَ العائدَ مِنْ أحُدٍ، يتغلّبُ على جراحِهِ وآلامِهِ، ويسيرُ خلفَ قائدِهِ مُدججاً بسلاحِهِ، ليُطاردَ العدوَّ الذي انتصرَ عليه يومَ أمسِ، وكلُّهُ عزمٌ وتصميمٌ وإيمانٌ، كأنَّ الهزيمةَ في أُحُدٍ لمْ تنلْ من معنوياتِهِ أبداً.

وخرجَ الجيشُ من المدينةِ، والنبيُّ يأمره أنْ يحثَّ السيرَ، ويقولُ لِبعضِ أصحابِهِ:

ـ لن ينالَ المشركون منا مثلَ أمسِ حتّى يَفْتَحَ اللهُ مكّةَ علينا!

وعند المساءِ بلغَ الجيشُ (صحراءَ الأسدِ) وهو

موضع على بُعْدِ ثمانيةِ أميالٍ من المدينةِ، وَعَسْكَرَ فيه، أمّا جيشُ أبي سفيانَ فقد توقّفَ في الروحاء وهو موضع لا يبعدُ كثيراً عن حمراءِ الأسدِ، و بلغَ أبا سفيانَ خبرُ خروجِ محمدٌ لمطاردتِهِ، فظنّ أنّهُ جاء بمدد من المسلمين جديدٍ، ومرَّ بأبي سفيانَ معبدٌ الخزاعيُّ ــ وخزاعةُ كانت حليفةً للمسلمين ــ فسأله عن محمدٍ. وكان مَرَّ به قَبْلَ وصولِهِ إلى الروحاءِ، فأجابَهُ:

ــ إنّ محمداً قد خَرَجَ في أصحابِهِ يطلبُكُمْ في جمعٍ لمْ أَرَ مثلَهُ قطُّ، يتحرّقون عليكم تحرُّقاً، وقد اجتمعَ معه مَنْ كان قد تخلّفَ عنه بالأمسِ من الأوسِ والخزرجِ، وتعاهدوا على ألاّ يرجعوا حتّى يلحقوكم فيثأروا منكم، وقد غضبُوا لقومِهِم غضباً شديداً، ولمن أصبتم من أشرافهم، وندموا على ما فعلوا..

ـــ ويلك ما تقولُ يا معبدُ؟

ـــ واللهِ ما أرى (أظن) أَنْ ترحلَ حتّى ترى نواصيَ الخيلِ!

وأثارتْ كلماتُ معبدٍ في نفوسِ القرشيين الذُعرَ والهلعَ، وكانوا قد توقفوا في الروحاءِ وهم يَتَجادلون، يُريدُ بعضُ قادتِهِم ـــ ومنهم عكرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ ـــ العودةَ إلى المدينةِ لمُهاجمتِهَا والقضاءِ النهائيِّ على محمدٍ ودعوتِهِ فيها، ويأبى بعضُ قادتِهِم ـــ ومنهم صفوانُ بنُ أمَيّةَ الجُمحيُّ ـــ العودةَ، ويرى متابعةَ الطريقِ إلى مكّةَ، مخافةَ أَنْ يُصابوا بعدَ الإنتصارِ بنكسةٍ كبيرةٍ، وقد جاءتْ نصيحةُ معبدٍ الخزاعيِّ لهم تُرجّحِ رأيَ صفوانَ، فقرروا مواصلةَ السيرِ إلى مكّةَ، وتحاشي الإصطدامِ بالمسلمين، ولكنّ أبا سفيانَ بدهائِهِ وحيلتِهِ لجأ إلى المكرِ، ليُوهم المسلمين بأنّه

عازمٌ على التصدّي لهم في حمراء الأسدِ، ليستأصِلَ بقيّتَهُم، وبعثَ مع ركبٍ من بني عبدِ القيسِ كان في طريقِهِ إلى المدينةِ خبراً بذلك، فلمّا أبلغَ الركبُ محمداً رسالةَ أبي سفيانَ، لمْ يحفلْ بتهديدِهِ، وبقيَ ثلاثةَ أيامٍ مُعسْكِراً في حمراءِ الأسدِ، يُوقدُ النيرانَ الكثيرةَ طوالَ الليلِ، ليدلَّ قُريشاً على عَزْمِهِ، وأنّه مستعدٌ لِقتالِهِم، وأنّه بانتظارِ أوبتِهِم.

ولمّا لمْ تُجْدِ حيلةُ أبي سفيانَ نَفْعاً، ولمْ يغادرْ محمدٌ حمراءَ الأسدِ إلى المدينةِ، تأكدَتْ قريشٌ من عزمِ المسلمين على القِتالِ، فآثرتِ البقاءَ على ما نالتْ مِنْ نَصْرٍ في أُحُدٍ، وعادتْ جموعُها قافلةً إلى مكّةَ.

عند ذلك عادَ الجيشُ الإسلاميُّ إلى المدينةِ، وقد استردَّ بمطاردته لِقُريشٍ كثيراً من مكانتِهِ، واستعاد

شيئاً من هيبتِهِ التي أضاعَها بانهزامِهِ في أحدٍ، وختم النبيُّ المعركةَ بنصرٍ سياسيٍّ يُخفِّفُ أثرَ الهزيْمَةِ الحربيَّةِ.

عوامل النصر والهزيمة: نظرة تحليلية

تعدّدَتِ المواقفُ في معركةِ أحدٍ واختلفتْ وتناقضتْ: من نصرٍ على جيْشِ قريْشٍ لمْ يكنْ حاسماً ولم ينتهِ به القِتالُ، أعقبتْهُ كرَّةٌ مفاجئةٌ أذهلتِ المسلمين وكبدّتهم هزيمةً منكرةً، ولكنّها لمْ تكنْ ساحقةً، فانتهتْ بانْسحابٍ منظّمٍ أنقذَ تسعين في المائة من الجيشِ الإسلاميِّ من كارثةٍ هددتْهُ بالفَناءِ!

هذه المواقفُ المتعددةُ والمختلفةُ، بين النّصرِ والهزيمةِ والانسحابِ، تُتيحُ لمنْ يحلِّلُ وقائعَ المعركةِ أنْ تعتمدَ نظرتُهُ على الموازنةِ والمقارنةِ بين عواملِ

النّصرِ وعواملِ الهزيمةِ، لإيضاحِ الدروسِ والعبرِ التي يستخلصُهَا، من هزيمةٍ بعدَ النَّصْرِ، وبضدّها تتميّزُ الأشياءُ!

-١-

أهمُّ عواملِ النصرِ الإسلاميِّ في الدورِ الأولِ من معركةِ أحدٍ **وحدةُ الجيشِ الإسلاميِّ عقيدةً وهدفاً**، وراءَ قيادتِهِ الحازمةِ، وقد تمَّ تطهيرُ الجيشِ من المنافقين المتظاهرين بالإسلامِ، بانسحابِ عبدِاللهِ بنِ أبيِّ والثلاثمائة من أتباعِهِ، فلمْ يبقَ غيرُ المؤمنين الصادقين، العازمين على القِتالِ باستماتةٍ وصمودٍ، دفاعاً عن عقيدتِهِم، وصداً لِلغُزاةِ المغيرين على وطنِهِم وأرضِهِم، وقد كان النبيُّ حريصاً على وَحْدَةِ العقيدةِ في جيشِهِ، في كلِّ معركةٍ يخوضها، ويأبى أَنْ يستنصرَ بِمُشْرِكٍ لا يُؤمن باللهِ ورسولِهِ في

حروبِهِ، وقد رأيناه يرفضُ خروجَ الكتيبةِ اليهوديَّةِ من حلفاء ِابنِ أبيٍّ، وكانتْ حَسَنَةَ التسلّحِ، لِلقتالِ في أحدٍ، لأنّه لا يريدُ أنْ يستعينَ بأهلِ الكُفْرِ على المشركين، وهو بحاجةٍ كبيرةٍ إلى مَنْ يُعينُهُ، على الجيشِ اللجبِ الذي يَزْحَفُ للقضاء ِعليه وعلى دعوتِهِ وأصحابِهِ، فحفظَ بذلكَ لجيشِهِ وحدةَ العقيدة والهدفِ، وضَمِنَ لأصحابِهِ أنْ يخوضوا المعركةَ صفوفاً متراصَّةً، كالبينانِ الواحدِ المتماسكِ، لا يتراجعون ولا يتقهقرون حتّى النَّصْرِ، وذلك ما حققوه في صبيحةِ يوم أُحُدٍ.

ولكنّ انسحابَ المنافقين قبْلَ بدايةِ المعركةِ، هي دونَ ريبٍ حركةُ تمرّدٍ غادرةٌ، قادها رأسُ النفاقِ عبدُالله ِبنُ أبيٍّ، وهي حركةٌ مدبّرة ٌأدّتْ إلى انصرافِ ثلثِ الجيشِ الإسلاميِّ عن المشاركةِ في

أحُدٍ، والغايةُ منها خذلانُ النبيِّ وإضعافُ معنوياتِ المسلمين قَبْلَ القِتالِ، ولو كانتْ حُجةُ ابنِ أبيٍّ (أنَّ النبيَّ خالفَ رأيه في الخروجِ) هي السببَ الحقيقيَّ في رجوعِهِ من منتصفِ الطريقِ، لما كان لخروجه معنى أصلاً، ولعله متواطئ في حركةِ التمرّدِ مع أعداءِ المسلمين من قريشٍ، ويرى بعضُ الباحثين أنَّ أثَرَ هذه الحركةِ الغادرةِ كان كبيراً في معنوياتِ الجيشِ الإسلاميِّ قبيلَ القِتالِ، ولولا ثباتُ النبيِّ والمخلصين من أصحابِهِ، وإصرارُهُم على متابعةِ الطريقِ إلى ساحةِ القِتالِ، لتَفَرّقَ الجيشُ إلى عدةِ فئاتٍ، وتمزّقتْ وَحْدتُهُ، من قَبْلِ أَنْ يخوضَ المعركَةَ، ولهذا فإنّ المنافقين بتمرّدِهِم الغادرِ وخذلانِهِم لِلجيشِ الإسلاميِّ يشاركون في أسبابِ الهزيمةِ، ويحملون نصيباً من مسؤوليتها.

— ٢ —

وثاني عواملِ النَّصْرِ الإسلاميِّ في صبيحةِ يوم أُحُدٍ **قوةُ الإيمانِ وروحُ الاستشهادِ** والتشوّقُ إلى الموتِ والجنةِ، فقد بقي في جيشِ محمدٍ بعد تطهّرِهِ من المنافقين كلُّ مؤمنٍ صادقِ الإيمانِ، عازمٍ على القِتالِ بصبرٍ واستماتةٍ، رغبةً في الشهادةِ؛ وكان المؤمنون يتسابقون إلى الموتِ، بدافعِ هذا الحافزِ الروحيِّ، حتّى الغلمان الصغار من فتيان المسلمين، كانوا يتحرّقون شوقاً، ليُجيزهم النبيُّ لِلقِتالِ، وقد شهدنا نماذجَ من حرصِ بعضِهِم على ذلك، برغم صغر سنّهم، عندما أجاز النبيُّ الفتى رافعَ بنَ خُديجٍ، لإجادتِهِ الرمايةِ، وردَّ الفتى سمرةَ بنَ جُندب، وهو أقوى من رافع، وقادرٌ على أنْ يُصارعَه فيصرعَه أرْضاً، فأبدى احتجاجَهُ، وألَّح حتى أجازه

النبيُّ تشجيعاً لطموحِهِ وعُنْفُوانِهِ وصِدْقِ رغبتِهِ في الخروجِ مع الجيشِ إلى أحُدٍ.

إنّ إيمانَ المسلمين يوفِّرُ لهم القوى المعنويَّةَ اللازمةَ لِثباتِ كلِّ محاربٍ في وجه الموتِ، لِتجعلَهُ يتغلّب على غريزةِ الخوفِ وحبِ البقاءِ والحرصِ على الحياةِ بالركون إلى الفِرارِ، وقد ثبتَ المسلمون صبيحةَ أحُدٍ أمامَ هجوم الفُرْسانِ من أبطالِ قريشٍ، ولم يتزحزحوا عن مصافّهم، وقاتلوا بشجاعةٍ وصبرٍ وإيمانٍ، حتّى لاح لهم النَّصْرُ، وولّى المشركون أمامهمُ الأدبارَ!

ولمْ يدركِ المسلمون أنَّ هزيمةَ المشركين لمْ تكنْ حاسمةً، وأنّ القتالَ لم يَنْتهِ بعدُ. وظنوا أنّ النصرَ كان فاصِلاً، فراحوا يطاردون فلولَ المنهزمين حتى دخلوا وراءهُم معسكرَهُم، وانصرفوا إلى جمع الغنائم

والأسلابِ، حين كرّ عليهم المشركون ثانيةً، وباغتوهم مباغتةً كاملةً، ووضعوا فيهم السيفَ، فطاشتْ عقولُ المسلمين، وألقوا ما بأيديهم مِن غنائمَ، وأذهلتهم المفاجأةُ، فاختلطتْ صفوفُهُم، وراحَ بعضُهُم يضربَ بعضاً، من الدَّهَشِ والضياعِ، وتمكّن المشركون من اختراقِ صفوفِهِم، حتّى وصلوا إلى النبيِّ، ونالوا منه، وسقط النبيُّ في إحدى الحفرِ، وقد أثقلته الجراحُ، وأضحى الجيشُ بلا قيادةٍ، وأضحى المسلمون كالأغنامِ الضائعةِ، وصِيْحَ أنّ محمداً قد قُتل، فانهارتْ معنوياتُ أكثرِهِم، وزالتْ حماستُهُم لمتابعةِ القِتالِ، وأثّرَتْ هذه الإشاعةُ الكاذبةُ في نفوسِ كثيرٍ من المسلمين، فبعضهم كفَّ عن القتالِ، وألقى السلاحَ، وفكرّ بعضُهم بالإستسلامِ وطلبِ الأمانِ، وعمّ الفزعُ والإضطرابُ

والدهشةُ جموعَ الجيشِ الإسلاميِّ، وراحتْ خيلُ المشركين تدوسُهُم، وهبّتِ الريحُ دبوراً تسفي وجوهَ المسلمين، ورانَ الرعبُ والخوفُ، ودارتِ الدائرةُ على المسلمين، وركنوا إلى الهزيمة بعد النَّصْرِ، وهربوا يصعدون منحدرات الجبل، فراراً بأنفسهم، لِلنجاةِ من الموتِ المُباغتِ، وسيوف المشركين تُلاحقُهُم، وتُبعثرهم فوقَ السفوحِ والهضابِ.

كان المسلمون في الساعاتِ الأولى من المعركةِ يقاتلون وهم مُتشوِّقون إلى الموتِ، فأصابوا الحياةَ والنصرَ، ثم صاروا يحاربون، وقد بوغتوا وانهارت معنوياتهم، من أجل النجاةِ بأنفسِهم، فأصابوا الموتَ والهزيمةَ!

ـ ٣ ـ

وثالث عواملِ النصرِ الإسلاميِّ في صبيحةِ يوم

أحُدٍ أَنّ **الجيشَ الإسلاميَّ كان يخوضُ حرباً دِفاعيَّةً، عَنِ العقيدةِ والوطنِ**، أمامَ المشركين المعتدين الغُزاةِ، فقد هَبّ أصحابُ محمدٍ من المهاجرين والأنصارِ لِيصدوا عدواً غازياً لهم في عُقر دارهم، يُريدُ أَنْ يسحقَهم ويمحقَ دينَهُم، ويُخرّبَ ديارهم ووطنهم، وما يشتملُ عليه هذا الوطنُ من مصالحَ، ولهذا كان لا بُدَّ للمسلمين أَنْ يصمدوا و يفتكوا بالغُزاةِ قبلَ أَنْ يُفتَكَ بهم، وأَنْ يحاربوا ببطولةٍ حتى الشهادةِ، ومصرعُ حمزةَ بحربةِ وحشيٍّ صورةٌ مثاليةٌ لِلاستشهادِ في سبيلِ العقيدةِ والإيمانِ، بعد أَنْ أبدى الشهيدُ في الميدانِ أروعَ آياتِ البطولةِ والجهادِ، ومصرعُ قُزمان بيده بَعْدَ أَنْ أبدىٰ في الحربِ بلاءً مشهوداً، وجندَلَ بسيفِهِ ونبالِهِ سبعةً من رجالِ قريشٍ في سُويعةٍ، غيرَ مَنْ قَتَلَ منهم في بدايةِ

المعركةِ، صورةٌ مثاليةٌ للاستماتَةِ في الدفاعِ عن الوطنِ، دونَ العقيدةِ، لأن قُزمان كان واحداً من المنافقين المتخلفين عن القتالِ في أُحُدٍ، فعيّرتْهُ النساءُ، وقُلن له بعد خروجِ الجيشِ: «ما أنت إلا إمرأةٌ! خرجَ قومُك وبقيتَ في الدار!» فغضب قزمان وحملَ سيفَهُ وتنكّبَ قوسَهُ وأخذ جعبةَ سهامِهِ، وكان معروفاً بالشجاعةِ، وخرج يعدو حتّى لحقَ بالجيشِ في أُحُدٍ، والنبيُّ يُسوّي الصفوفَ قُبيلَ القِتالِ، فتخطّاها حتى كان في الصفِ الأولِ منها، وقاتلَ مع المسلمين أشجعَ قتالٍ، وأصاب أكثر من واحدٍ من حملةِ لواءِ المشركين، بنبالٍ كان يُرسلها كأنها الرماحُ، وأصيب بجراح كثيرة، لم يصبر على آلامها، فقتل نفسَه، وقال لمن حوله من المسلمين وهو يسلم الروح: إنّهُ لمْ يخرجْ إلى أُحُدٍ إلاّ دِفاعاً

عن أَحْسَابِ قومِهِ، وغضباً أَنْ تسيرَ قريشٌ إليهم فَتَطَأ أرضهمَ وتقتحم حُرمتَهَم!

لقد قاتلَ المسلمون بضراوةٍ دفاعاً عن وجودهم وعقيدتهم ووطنهم، وأقدموا كالليوثِ على حملةِ اللواءِ العبدريين من المشركين حتى أبادوهم، واحداً إِثْرَ واحدٍ، حتّى سَقَطَ اللواءُ أخيراً صريعاً أمامَ استبسالِ الزبيرِ وعليٍّ وأبي دُجانَةَ وعُمَيرِ بنِ مصعبٍ وحمزةَ وقُزمان، وانكشف المشركون إثر ذلك وولوا هاربين، وحققَ المسلمون على قلتهم مُعْجِزَةَ النَّصْرِ في أولِ النهارِ في معركةٍ غيرِ مُتَكافئةٍ، وانهزمَ المعتدون وهم أكثرُ من أربعةِ أمثالِ المسلمين عدداً وأسلحةً وتجهيزاً.

ولكنّ المشركين كانوا يخوضون حَرْباً انتقامِيَّةً، يحفزهم إلى القِتالِ ثأرٌ لهزيمةٍ لهم في بَدْرٍ، حملتْ إليهم

الخزي والمذلةَ والعارَ، ونكبتهم بمصارعِ عددٍ كبيرٍ مِنْ أشرافِهِم وشُيوخِهِم، فهم لذلك موتورون متحمّسون قادةً وجنداً، وبينهم عددٌ من الحانقين، قد أقسموا أَنْ يقتلوا محمداً ويقضوا على دعوتِهِ، إنتقاماً لما أصابَ قريشاً على يديهِ من انقسامٍ وتمزّقٍ وهزيمةٍ، وذُلٍ! وقد تعرّضتْ حياةُ النبيِّ للخطرِ على يدِ هؤلاء الموتورين الحاقدين، كما رأينا، وارتدّ المشركون بَعْدَ هزيمتِهِم الأولى لمعاودة القتالِ، بعد نجاحِ حركةِ الإلتفافِ التي قادها خالدُ بنُ الوليدِ وكوكبةُ فُرْسانِهِ، وعاودوا الكرّةَ على المسلمين بتحريضٍ من النساءِ القرشياتِ، وكُنَّ يذكّرْنَهُم بدماءِ مَنْ أُصيبوا في بَدْرٍ، ويحرّضنهم على الثأرِ والإنتقامِ! وتمكن المشركون بهجومِهِم العكسي المباغتِ أنْ ينالوا من المسلمين ويهزموهم!

— ٤ —

ورابع عواملِ النَّصرِ الإسلاميّ في صبيحةِ يوم أُحُدٍ **التزام المسلمين بالطاعةِ والانضباطِ واليقظةِ** والتقيّد بتوجيهاتِ القيادةِ، وتنفيذ الأوامرِ الصادرةِ عنها بصرامَةٍ ودقةٍ، وكان من جرّاءِ ذلك مُرابطةُ الرماةِ الخمسين فوقَ هضبةِ عينين، مع أميرهم عبدِالله بنِ جبيرٍ، وحرصُهُم على تنفيذِ أمرِ النبيِّ بحمايَةِ مؤخرةِ الجيشِ من خطرِ التفافِ خيلِ المشركين لتطويقِهِ، فكانوا يوالون رَشْقَ فُرْسانِ قريشٍ بالنِّبالِ، فترتد خيلُهم متقهقرةً، وقد حاولَ خالدُ بنُ الوليدِ وعكرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ مرّاتٍ القيامَ بحركةِ التفافٍ بقواتِ الفُرْسانِ لتطويقِ الجيشِ الإسلاميِّ من ظهره، فباءتْ محاولاتُهما بالفشلِ أمامَ يقظةِ الرماةِ ورشقهم المحكم للنبالِ في وجوهِ الخيلِ،

وبذلك تمكّن النبيُّ من تعطيل قوةِ الفرسانِ المتحركةِ التي كانتْ قريشٌ تتفوّقُ بها على الجيشِ الإسلاميِّ (مئتا فرس لقريشٍ وفَرَسَانِ للمسلمين) وتمكن المسلمون من هزيمةِ المشاةِ القرشيين، والرماةُ يحمون ظهورهم، ويعينونهم على النيل من الفرسان في قلبِ الميدان أيضاً!

ولكنّ الرماةَ الخمسين لم يظلوا ملتزمين بتوجيهاتِ القيادةِ عندما شاهدوا مِنْ مركزِهِم المشرفِ هزيمةَ قريشٍ ومطاردةَ المسلمين لهم، ودخولَهم إلى معسكرهم، وانتهابهم لما فيه من غنائمَ وأسلابٍ، فَعَصوا أوامر النبيِّ ــ إلاّ عدداً قليلاً منهم ــ وتركوا مركزَهُم، وأسرعوا يشاركون أخوانهم في جمعِ الغنائمِ، وأبصرَ خالدُ بنُ الوليدِ انصرافَ الرماةِ عن الهضبةِ، فقامَ بحركةِ الإلتفافِ الناجحةِ،

وصاحَ بالمنهزمين من قريشٍ، فارتدوا، ليطوّقوا الجيشَ الإسلاميَّ، و يُكبّدوه هزيمةً منكرةً بعد نصرٍ غيرِ حاسمٍ!

إنّ عصيانَ الرماةِ لأوامرِ النبيِّ من أهمِ الأسبابِ المباشرة للهزيمةِ بعدَ النصرِ، فهم بتخلّيهم عن حِمَايةِ مُؤخرةِ المسلمين أتاحوا لخالدِ بنِ الوليدِ أَنْ يُفاجىء الجيشَ الإسلاميَّ بالتطويقِ، و يُباغتهم بِهُجومٍ مُعاكسٍ، بعد أَنْ ظنُّوا أَنّ المعركةَ قد انتهتْ بالنَّصْرِ، فانصرفوا عن القتالِ إلى جمعِ الغنائمِ آمنين غافلين، وقد أذهلتهم المباغتةُ، وأطاشتْ صوابَهُم، ومزّقت شملَهُم، و يسّرتْ للمشركين أَنْ يُلْحِقُوا بهم هزيمةً مُنكرةً.

— ٥ —

وآخر ما نقفُ عنده من عواملِ النصر في صبيحةِ

أحُدٍ **عبقرية القيادةِ**، فلها الفضلُ الأكبرُ في تحقيقِ النَّصْرِ أولاً، وفي مُواجهةِ الهزيمةِ بثباتٍ ورباطةِ جأشٍ واستبسالٍ ثانياً، وفي تنفيذِ الانسحابِ بأقلِّ الخسائرِ الممكنةِ ثالثاً، وفي تخفيفِ وقعِ الهزيمةِ وأثرِهَا في نفوسِ المسلمين والشامتين بهم من اليهود والمنافقين بالمطاردةِ لجيشِ قريشٍ ثاني يوم المعركةِ رابعاً.

أما النصرُ الأولُ فهو مَدينٌ لِعبقريّةِ القائدِ: شخصيةً وخِطّةً وإدارةً للعمليات الحربية. فشخصيةُ النبيِّ القائدِ في تواضِعها واعتمادِها على الشورى والديموقراطية، وإنسانيتهَا في مخالطةِ الجُنْدِ ومُعاملتِهِم، هي الشخصيةُ المُثلى التي توفرتْ لها ضروبٌ مِنَ الكمالِ، حتّى خُوطِبَ صاحبها «وإنكَ لعلى خُلقٍ عظيم» والتخطيط العبقري للمعركةِ،

ابتداءً مِن اختيارِ مَيْدانِها، عند سفوحِ جبلِ أُحُدٍ، واتخاذ الجبلِ بمنحدراتِهِ الصعبةِ مستنداً من وراءِ الجيشِ، يحمي ظهره، ويُتيح للمسلمين عِنْدَ الضرورةِ أَنْ يعتصموا بِشِعَابِهِ، وييسر عليهم عملية الانسحابِ وهم رجّالة مُشاة، ويمنعُ خيلَ المشركين من مُتابعتِهم، لأنّ الخيلَ لا تصعد المنحدرَ إلا بجهدٍ، وبإمكانِ المسلمين المشرفين عليها من أعلى أَنْ يرموها بالحجارةِ ويصدوها عن مطاردتهم، بالإضافةِ إلى توزيعِ قطعات الجيشِ، وإقامةِ كتيبةِ الرُّماةِ فوقَ الهضبةِ، وأمرِها بالمرابطةِ فيها وحمايةِ ظهرِ الجيشِ من التفافِ الفُرْسانِ وتطويقهم له. وقد اعتمد النبيُّ في تخطيطِهِ للمعركةِ على ما لديه من معلومات وافية عن عدوه وجيشه وقياداته وتجهيزاته وخططه، ولمْ يكنْ لِيمتلكَ هذه المعلومات لولا عِنَايَتُهُ بالاستطلاعِ

والاستخباراتِ المتوالية عن عدوِّه، ببِثِّ العيونِ والجواسيس، وتلَقي الأخبارِ عنه منهم، وبفضلِ ذلك لم يُفاجأ النبيُّ بحملةِ الانتقامِ التي ساقتها قريشٌ إليه، وجاءهُ كتابُ عمِّه العباس بالأخبار المفصّلةِ عن الحملة وتجهيزاتها ونواياها، وعمليةُ المطاردةِ التي قام بها النبيُّ في اليوم التالي للمعركةِ غايتُها الأولى أن يطمئن القائدُ بنفسِهِ إلى أنّ قريشاً لمْ تتخلّفْ في مكانٍ قريبٍ من المدينةِ، لِتقومَ بهجومٍ فجائي عليها، بالإضافةِ إلى ما حققته المطاردةُ من غاياتٍ أخرى، وما خَتَمَتْ به المعركةَ من نَصْرٍ سياسي تحدثنا عنه.

وقد ادار النبيُّ العملياتِ الحربيةَ بعبقريةٍ أيضاً حتّى وَصَلَ بها إلى النَّصْرِ، فكان يطوفُ على الصفوفِ في ميدانِ القِتَالِ، يحرّض المؤمنين ويبث في نفوسهم الثقةَ بالنصرِ، حتّى تحققَ لهم أوّلَ الأمرِ،

كما أدار عملياتِ الانسحاب برباطةِ جأشٍ وتنظيم، فلم يُبادر إلى تكذيبِ إشاعةِ موتِهِ، ليمتصَّ بها حقدَ الموتورين من قريشٍ، ويعطّلَ حافزهم إلى موالاة القِتالِ، ويصدَّهُم عن مطاردةِ أصحابِهِ بعد الهزيمةِ وإفناءِ مَنْ يقدرون على الوصولِ إليه منهم، فلمّا انطفأتْ جمْرَةُ الحقدِ القُرشيِّ، وظَنَّ الموتورون أنّهم قد بلغوا بمقتلِ محمدٍ ما يريدون، وارتدوا إلى معسكرهم وقد بَرَدَ القتالُ، وشُغِلِ بالتمثيلِ بجثثِ الشهداءِ وتشويهها، راح محمدٌ يقودُ عمليةَ الانسحابِ فوقَ المنحدراتِ، بمهارةٍ دلّت عليها نجاةُ تسعين في المائة من الجيشِ الإسلاميِّ، تمّ إنقاذُهُمْ من كارثةٍ مُحققةٍ، مع أنّ ثلثَهُمْ كان مُثخناً بالجراحِ، وأن القائدَ العامَّ نفسَهُ أصيبَ في وجهِهِ وشفتِهِ وبعضِ أسنانِهِ، وسال دَمُهُ حتى قَطَرَ من لحيتِهِ؛ وتمتْ عمليةُ

الانسحابِ بنجاحٍ وبأقلِ الخسائرِ، مع أنّ ما حدث في معركةِ أُحُدٍ ـ كما يقول بعضُ الباحثين العسكريين اليومَ ـ كان كافياً لتحطيم أيِّ جيشٍ في العالمِ.

ولئن كان النَّصْرُ أولَ الأمرِ مديناً لعبقريةِ القائد الإسلاميِّ، فإن الهزيمة التي أعقبتْهُ مدينةٌ لمهارةِ القيادةِ القرشيَّةِ وخبرتها وذكائِهَا: فأبو سفيان بحسن تدبيرِهِ ومكرِهِ، وغنى تجربتِهِ وقوةِ شخصيتِهِ تمكّنَ من قيادةِ المشركين وتوحيدِ صفوفِهِم وإلهابِ أحقادِهِم، وتحقيقِ النصرِ لهم بَعْدَ الهزيمةِ، فأثبتَ بذلك أنّه من القادةِ البُسَلاء والسياسيين البارعين، وقد رأينا محاولاتِهِ الماكرةَ لتمزيقِ وحدةِ المسلمين قبلَ القِتالِ، وما ندري لعلّ لِدهائِهِ يداً في انسحابِ المنافقين وتمرُّدهم وخذلانهم للنبيِّ والمؤمنين ورجوعهم

إلى المدينةِ؛ كما رأينا تهديده بالعودةِ إلى الغارة على المدينةِ، مكراً وحيلةً، مع أنّه قررّ مواصلةَ السيرِ إلى مكّةَ، وعدم التصدي للمسلمين. وإلى جانبِ مهارةِ أبي سفيانَ ينبغي أَنْ نذكر ما تكشفتْ عنه المعركةُ من قياداتٍ قرشيّةٍ موهوبةٍ (خالد بن الوليد بحركة الالتفاف والتطويق) وبطولات حربية لامعة (عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب) وستظهرُ كفاياتُ هؤلاءِ عندما ينتقلون من صفوفِ المشركين إلى صفوفِ المؤمنين.

وينبغي أنْ نُضيفَ إلى قياداتِ قريشٍ الموهوبةِ ما توفّر لجيشِ مكّةَ من تجهيزٍ كبيرٍ من الأمتعةِ والأسلحةِ والتموينِ والخيلِ، أعانتْ عليه أموالُ القافلةِ وأرباحُها السخيةُ المرصودةُ لتزويدِ الحملةِ الانتقاميةِ بكلّ ما يلزمُها، وقد انفردتْ قريشٌ بقوة

الفُرْسانِ المائتين، فيسّرتْ لها هذه القوةُ السريعةُ الحركةِ تنفيذَ خِطـّةِ الالتفافِ والتطويقِ. وهي التي غيرّتْ وَجْهَ المعركةِ، وَمَنَحتِ المشركين التفوّقَ والنصرَ بعدَ الهزيمةِ، وشهدَ بعضُ المسلمين أنّ خَيْلَ المشركين في أُحُدٍ هي التي فَعَلَتِ الأفاعيلَ، ولمْ يكنْ لدى المسلمين ما يواجهونها به بعد تخلي الرُّماةِ عن مركزِهِم ونجاحِ خالدٍ في تطويقِ الجيشِ الإسلاميِّ.

* * *

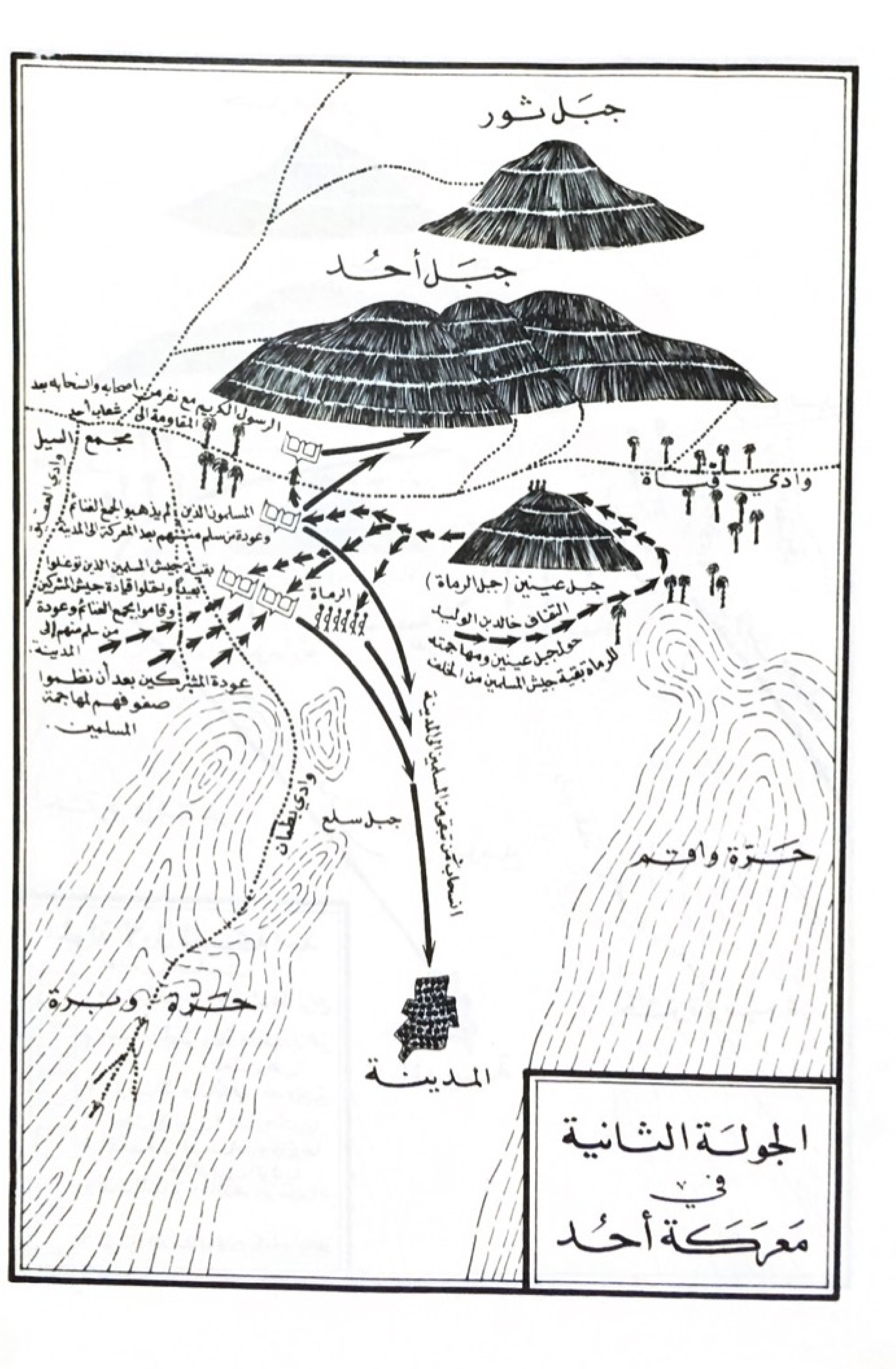
تلك هي أبرزُ عواملِ النصرِ والهزيمةِ في أُحُدٍ: وهي معركةٌ بالغةٌ الأهميةِ في التاريخِ العربيِّ، لما تتضمّنُه مواقفُها المختلفةُ من دروسٍ وعبرٍ، وقد أفاد المسلمون من هزيمتهم في أُحُدٍ، فأدركوا أنّ قوتَهُم التي لا تُقهر، إنما هي في وحدتهم وتماسك بنيانهم

وراءَ قائدِهم، وجهادِهم في سبيلِ اللهِ، وَأَنْ ليس وراءَ التنازعِ والتخاذلِ والعصيانِ وإيثارِ عَرَضِ الدنيا إلاّ الهزيمةُ والمذلةُ والهوانُ، ووعى المسلمون الدرسَ بَعْدَ أحُدٍ، فلمْ يخسروا معركةً أخرى بقيادةِ النبيِّ، وتوالت عليهم مواكبُ النَّصْرِ، حتّى أتموا فتحَ مَكَّةَ، ووحدوا الجزيرةَ العربيةَ، وقضوا على الشِّرْكِ فيها، ولمْ تستطعْ قريشٌ أَنْ تحقِّقَ الغَرَضَ الحقيقي من وراءِ نصرِها في أحُدٍ، فلا هي تمكّنتْ من سَحْقِ الدعوةِ الإسلاميَّةِ والقضاء على قائدِهَا ورجالِهَا، ولا هي توصّلتْ إلى إعادةِ السيطرةِ العسكريةِ في بلاد العربِ إلى (مكّةَ) القُرشيَّةِ، بَعْدَ أَنْ نقلتها مَعْركةُ بَدْرٍ إلى (المدينةِ) الإسلاميَّةِ.

المحتوى



جبل ثور
جبل أحُد
مجمع السيل
وادي العقيق
وادي بطحان
وادي قناة
١
٢
٣
٤
٥
٦
جبل عينين (جبل الرماة)
تفرق قريش بعد هزيمتها
ديار بني حارثة
جيش قريش (المشركون)
جيش المسلمين
حرة واقم
وادي بطحان
جبل سلع
حرة وبرة
المدينة
الجولة الأولى لمعركة أحُد
جيش المسلمين
١ ميمنة الجيش وقائدها الزبير
٢ ميسرة الجيش وقائدها المنذر بن عمر الخزرجي
٣ الرماة : وقائدهم عبدالله بن جبير
جيش قريش (المشركون)
٤ الميمنة (الفرسان) وقائدها خالد بن الوليد
٥ قلب المشاة وقائدهم أبو سفيان
٦ الميسرة (الفرسان) وقائدهم عكرمة بن أبي جهل



جبل ثور
جبل أحد
الرسول الكريم مع نفر من أصحابه وانسحابه بعد المقاومة الى شعاب أحد
مجمع السيل
وادي العقيق
وادي قناة
المسلمون الذين لم يذهبوا لجمع الغنائم وعودة من سلم منهم بعد المعركة الى المدينة
بقية جيش المسلمين الذين توغلوا بعيداً وتخلوا قيادة جيش المشركين وقاموا بجمع الغنائم وعودة من سلم منهم الى المدينة
الرماة
جبل عينين (جبل الرماة)
التفاف خالد بن الوليد حول جبل عينين ومهاجمته للرماة بقية جيش المسلمين من الخلف
عودة المشركين بعد أن نظموا صفوفهم لمهاجمة المسلمين
جبل سلع
وادي بطحان
حرة واقم
حرة وبرة
المدينة
الجولة الثانية في معركة أحد

معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

معركة أُحُد

٣ هـ / ٦٢٥ م

الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي

بيروت ـ شارع سورية ـ بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات، من الجاهلية إلى القرن الهجري الثالث.

١- معركة ذي قار
٢- معركة بدر الكبرى
٣- معركة أحد
٤- معركة اليمامة
٥- معركة اليرموك
٦- معركة القادسية
٧- معركة نهاوند
٨- معركة وادي لكة
٩- معركة بلاط الشهداء
١٠- معركة عمورية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والأستاذ محمد الانطاكي
واشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه إلا القادرون على الموت في سبيله



معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والاستاذ محمد الانطاكي
واشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر



سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات
من الجاهلية الى القرن الهجري الثالث .

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على
الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -